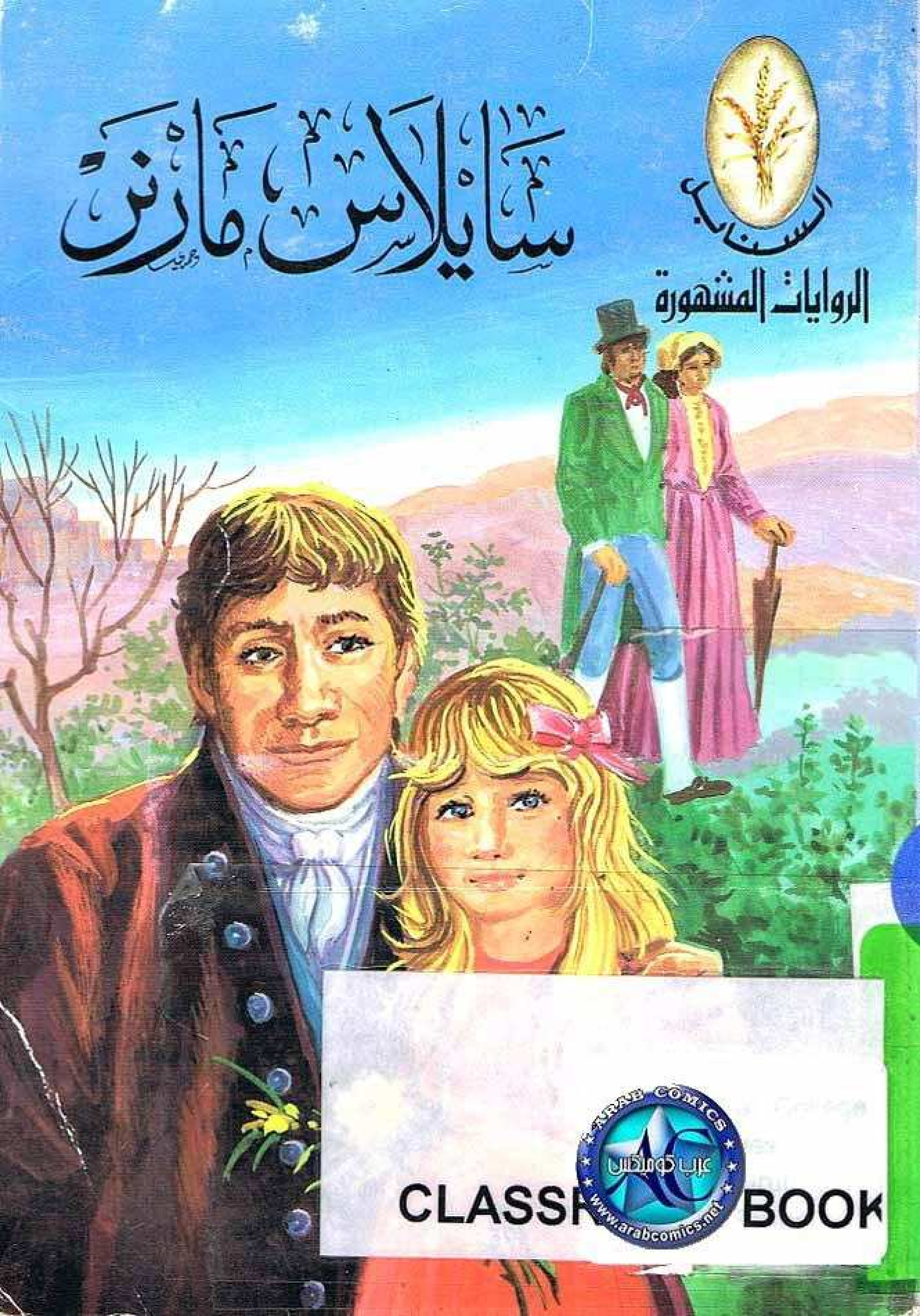
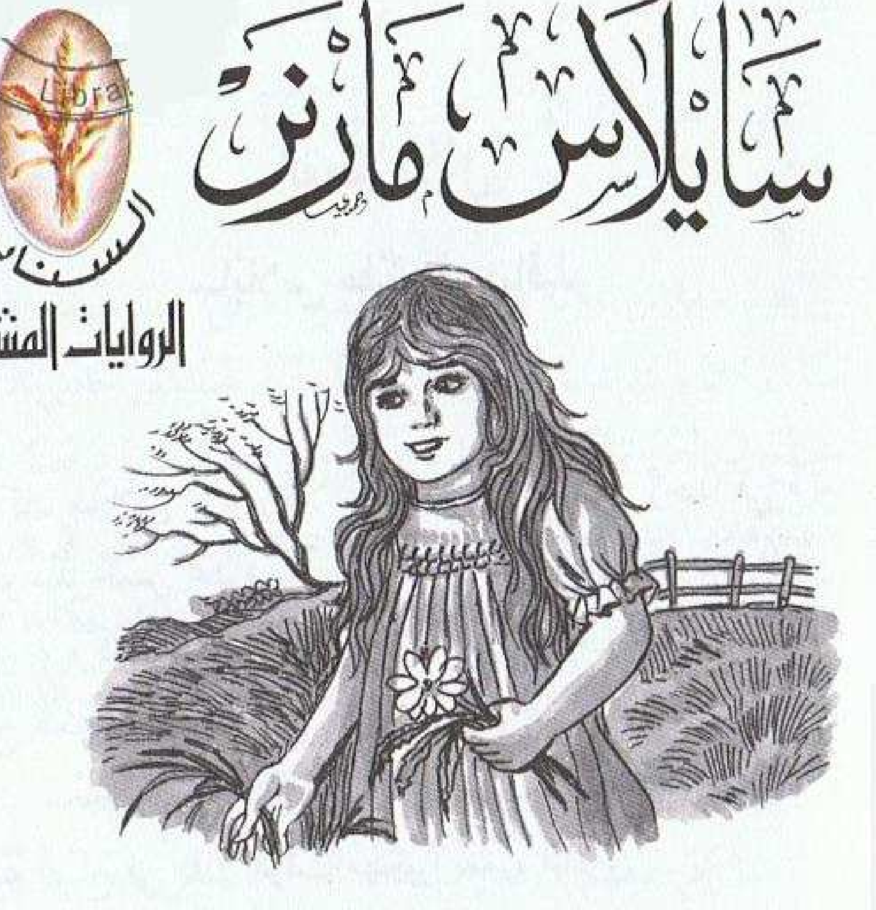

سائلاس مارنر


سنابل
سايلاس مارنر
الروايات المشهورة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net
CLASSIC BOOK

سايلاس مارنر

الروايات المشهورة



تأليف : جورج إليوت

أعدها بالعربية : شوقي رياض السنوسي

رسوم : محمد قطب

مكتبة لبنان

بيروت

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٠

رقم الإيداع : ٨٣٧٢ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠٠٧ - ٩

طبع بمطابع دار العالم العربي

الفَصْلُ الأَوَّلُ

سايْلاس مارْنَر في راڤيلو

كانَ سايْلاس مارْنَر رَجُلاً غَريبَ الأَطوار ، يَعيشُ وَحيداً في قَرْيَةِ راڤيلو مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً . وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ القَرْيَةِ يَعْرِفونَ شَيْئاً عَنْ حَياتِهِ ، وَكانُوا يَسْتَشْعِرونَ إزاءَهُ شَيْئاً مِنَ الخَوْفِ . وَكانَ يَشْتَغِلُ بِنَسْجِ الكَتّانِ ، وَيَعيشُ في كوخ حَجَرِيٍّ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ القَرْيَةِ ، بِجِوارِ مَحْجَرٍ قَديم كانَ العُمّالُ يَسْتَخْرِجونَ مِنْهُ أَحْجارَ البِناءِ ، وَلكِنَّهُ أَصْبَحَ في ذلِكَ الوَقْتِ مَهْجوراً يَغْمُرُهُ الماءُ .

كانَتْ قَرْيَةُ راڤيلو تَقَعُ في وادٍ خَصيبٍ وَسَطَ إنْجِلْترا ، وَفي مِنْطَقَةٍ نائِيَةٍ مِنْ هَذا الوادي تَحُفُّ بِها الأَشْجارُ العالِيَةُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وَكانَتِ القَرْيَةُ تَبْعُدُ عَنْ أَيِّ طَريقٍ رَئيسِيٍّ يَرْبِطُ بَيْنَها وَبَيْنَ سائِرِ البُلْدانِ بِمَسافَةٍ طَويلَةٍ يَقْطَعُها المُسافِرُ عَلى ظَهْرِ الحِصانِ في غُضونِ ساعَةٍ ؛ وَلِذا كانَتْ شِبْهَ مَعْزولَةٍ عَمّا حَوْلَها ، لا يَمُرُّ بِها

المُسافِرونَ إلا نادِراً ، وَلا يَرِدُ إلَيْها مِنَ الأَخْبارِ الخارِجِيَّةِ إلا القَليلُ .

وَفي وَسَطِ تِلْكَ القَرْيَةِ كانَتْ تَقومُ أَرْبَعَةُ أَوْ خَمْسَةُ مَنازِلَ ريفِيَّةٍ يَقْطُنُها كِبارُ مُزارِعي القَرْيَةِ .

قَدِمَ سايْلاس مارْنَر إلى راڤيلو لِلْمَرَّةِ الأولى مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكانَ يَوْمَئِذٍ شابًّا شاحِبَ الوَجْهِ ذا عَيْنَيْنِ عَسَلِيَّتَيْنِ حادَّتَي النَّظَرِ. وَتَطَلَّعَ إلَيْهِ أَهْلُ القَرْيَةِ آنَذاكَ في ريبَةٍ وَحَذَرٍ ، فَقَدْ كانَ شَخْصاً غَريباً عَنْهُمْ قادِماً مِنَ الشَّمالِ ، وَهُوَ يُجيدُ حِرْفَةَ النَّسْجِ الَّتي لا يَعْرِفونَ عَنْها شَيْئاً . وَمِنْ ثَمَّ عاشَ سايْلاس مُنْفَرِداً في ذَلِكَ المَكانِ ، لا يَتَحَدَّثُ إلى أَهْلِ القَرْيَةِ وَلا يَتَحَدَّثونَ إلَيْهِ إلا عِنْدَما يُريدُ أَنْ يَبْتاعَ مِنْهُمْ شَيْئاً ، أَوْ يَبيعَ لَهُمُ الكَتّانَ الَّذي يَنْسِجُهُ عَلى نَوْلِهِ .

وَمِمّا زادَ خَوْفَهُمْ ، وَنُفورَهُمْ مِنْهُ ، أَنَّهُ كانَ يُعاني داءً غَريباً يُؤَدّي بِهِ – في بَعْضِ الأَحْيانِ – إلى غَيْبوبَةٍ يَتَصَلَّبُ خِلالَها جِسْمُهُ ، وَلا يَدْري شَيْئاً عَمّا يَدورُ حَوْلَهُ .

وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ ذلِكَ فَقَدِ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَعايَشَ مَعَهُمْ ، وَيَكْتَسِبَ مِنْهُمْ نُقوداً كَثيرَةً ، لأَنَّهُ كانَ نَسّاجاً ماهِراً مُفيداً لَهُمْ ، تَحْرِصُ عَلى التَّعامُلِ مَعَهُ زَوْجاتُهُمْ ، لا سِيَّما زَوْجاتُ الأَثْرِياءِ مِنْهُمْ .

وَلعَلَّ السَّبَبَ في إيثارِ سايْلاس مارْنر الوَحْدَةَ وَالابْتِعادَ عَنِ النّاسِ، أَنَّهُ كانَ يَطْوي حَنايا صَدْرِهِ عَلى سِرٍّ ، هُوَ شَديدُ الحِرْصِ عَلى كِتْمانِهِ ، فَقَدْ كانَ يُقيمُ في مَدينَةٍ أُخرى كَبيرَةٍ اسْمُها لانْتِرْن يارْد ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ لِيَسْتَوْطِنَ بَلْدَةَ راڤيلو . وَكانَ لَهُ فيها أَصْدِقاءُ كَثيرونَ يَشْتَغِلونَ مِثْلَهُ بِنَسْجِ الكَتّانِ . وَفي تِلْكَ الأَيّامِ كانَ سايْلاس مارْنر مُتَدَيِّنًا يَلْتَزِمُ بِتَأْدِيَةِ فُروضِ دينِهِ .

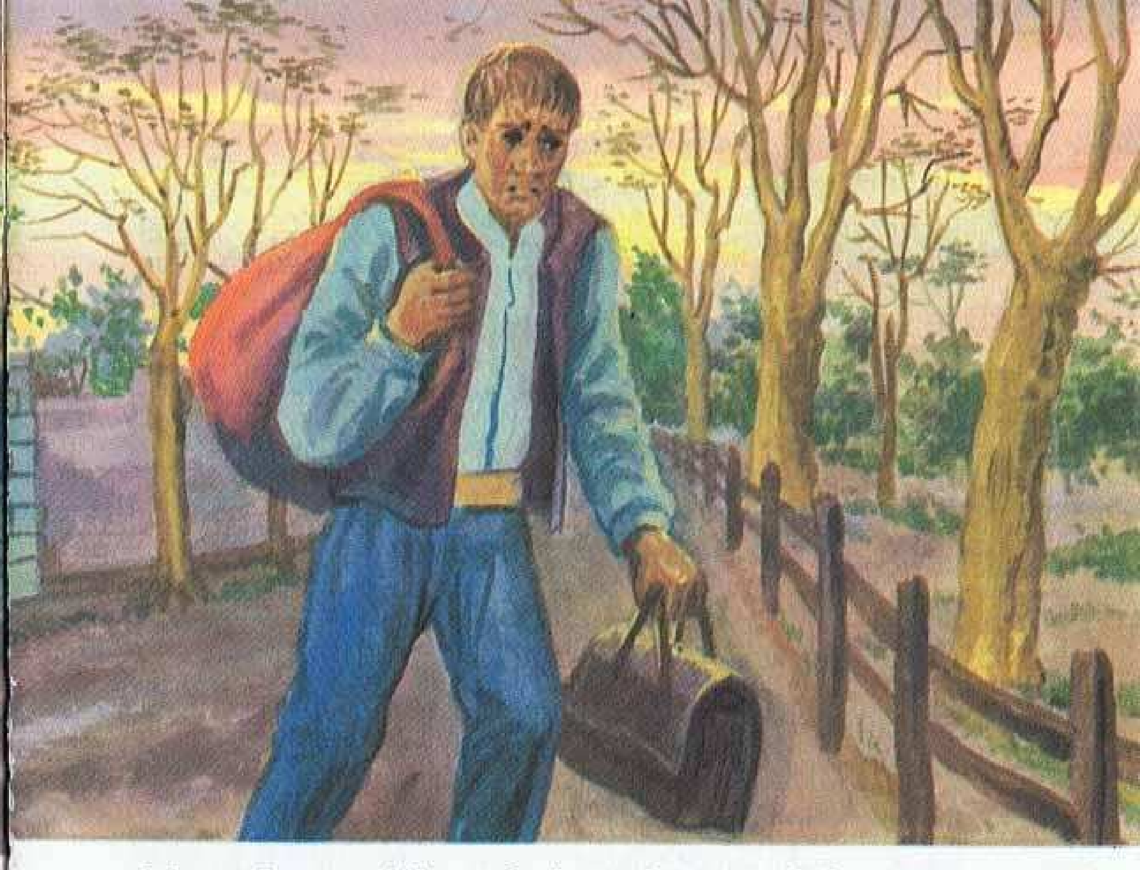
وَكانَ أَحَبَّ أَصْدِقائِهِ إِلَيْهِ وِلْيَم دين ، الَّذي كانَ يَكْبُرُهُ في العُمْرِ، وَلكِنَّهُ – يَبْدو مِثْلَهُ – شابٌّ طَيِّبٌ عَميقُ التَّدَيُّنِ ، بَلْ إِنَّ الآخَرينَ كانوا يَرَوْنَ فيهِ قُدْوَةً وَأُسْوَةً ، مَعَ أَنَّهُ كَثيراً ما يَغْتَفِرُ لِنَفْسِهِ مِنَ الذُّنوبِ ما لا يَغْتَفِرُهُ لِلآخَرينَ ، وَيُنَدِّدُ بِعُيوبِ الجَميعِ وَلا يَرى عُيوبَ نَفْسِهِ ، حَتّى أَساتِذَتُهُ وَمُعَلِّموهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكونوا عَلى خَطَأٍ ، أَمّا هُوَ فَلا يَجوزُ عَلَيْهِ الخَطَأُ أَبَداً . هَكَذا كانَ وِلْيَم دين نَموذَجاً لِلتَّشَدُّدِ وَالتَّزَمُّتِ في مُعامَلَتِهِ لِرِفاقِهِ ؛ إِذْ كانَ يَظُنُّ نَفْسَهُ أَذْكى مِنْهُمْ عَقْلاً وَأَحْكَمَ بَصَراً ، وَأَقْوَمَ طَريقاً . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ سايْلاس يَضيقُ بِمُعاشَرَةِ صَديقِهِ هَذا ، بَلْ كانَ يُحِبُّهُ حُبّاً جَمّاً ، وَيَرى فيهِ مَثَلَهُ الأَعْلى المُبَرَّأَ مِنَ العُيوبِ .

كانَ الصَّديقانِ عَلى طَرَفَيْ نَقيضٍ ؛ وِلْيَم يَبْدو واثِقاً بِنَفْسِهِ عَليماً

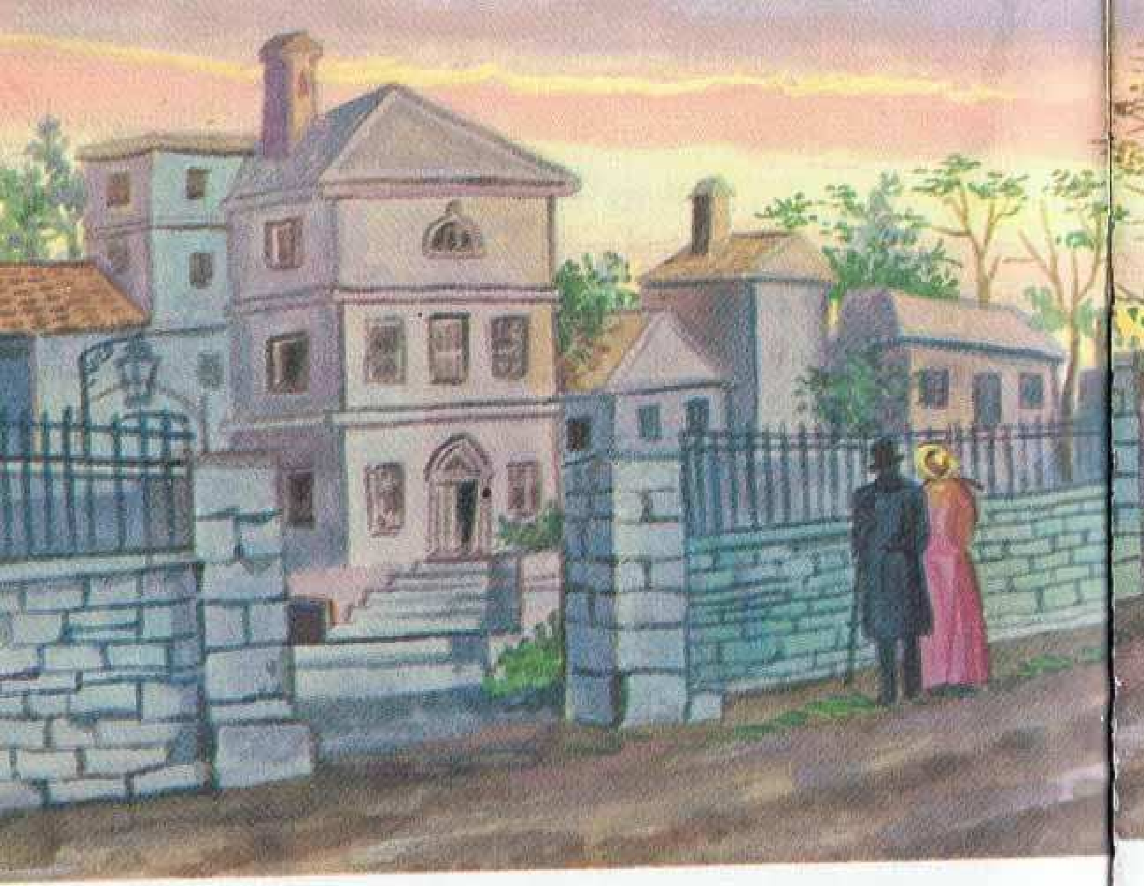
بِكُلِّ شَيْءٍ ، وسايْلاس يُسيءُ الظَّنَّ بِنَفْسِهِ وَيَعْتَرِفُ بِما يَرْتَكِبُهُ مِنْ أَخْطاءٍ ، وَهُوَ لِهَذا دائِمُ الشُّعورِ بِالْخَوْفِ . وَكانَ هَذا الاخْتِلافُ بَيْنَ أَعْماقِ الرَّجُلَيْنِ يَبْدو وَاضِحاً على صَفْحَتَيْ وَجْهَيْهِما ؛ فَقَدْ كانَتْ عَيْنا سايْلاس تَلْمَعانِ بِحُبِّ الآخَرينَ ، وَتُفْصِحُ نَظَراتُهُما عَمّا تَمْتَلِئُ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ العَطْفِ عَلَيْهِمْ ، وَالمَوَدَّةِ لَهُمْ ، وَلكِنَّهُما كانَتا لا تَلْحَظانِ مِمّا يَدورُ حَوْلَهُ إِلا القَليلَ . أَمّا وِلْيَم فَقَدْ كانَتْ عَيْناهُ ضَيِّقَتَيْنِ تَنْبَعِثُ مِنْهُما نَظَراتٌ مُلْتَوِيَةٌ غامِضَةٌ ، وَكانَ فَمُهُ مَزْمومَ الشَّفَتَيْنِ يَنِمُّ عَنِ القَسْوَةِ وَالصَّرامَةِ .

وَكانَ سايْلاس قَدْ خَطَبَ لِنَفْسِهِ آنَذاكَ خادِمَةً شابَّةً تُدْعى سارَة ، وَكانَ يَتَطَلَّعُ إِلى الزَّواجِ بِها . وَكانا يَدَّخِرانِ النُّقودَ مَعاً لإِتْمامِ زَواجِهِما المُرْتَقَبِ . وَذاتَ يَوْمٍ هاجَمَتْ نَوْبَةُ المَرَضِ سايْلاس أَثْناءَ قِيامِهِ بِالصَّلاةِ ، عِنْدَئِذٍ قالَ صَديقُهُ وِلْيَم الذي كانَ مَعَهُ آنَذاكَ : « إِنَّ سَبَبَ تِلْكَ النَّوْباتِ هُوَ الشَّيْطانُ الَّذي يَتَقَمَّصُ روحَ سايْلاس !»

وَما إِنْ سَمِعَتْ سارَةُ تِلْكَ العِبارَةَ حَتَّى انْتابَتْها خَشْيَةٌ مِنْ خَطيبِها. وَأَخَذَتْ مُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ تَفْقِدُ اهْتِمامَها بِسَيْلاس ، وَإِنْ زَعَمَتْ أَنَّها لَنْ تَرْفُضَ الزَّواجَ بِهِ . وَحَدَثَ أَنْ مَرِضَ أَحَدُ شُيوخِ الحَيِّ الذي يَعيشُ فيهِ ، وَكانَ يَتَناوَبُ خِدْمَتَهُ أَهْلُ الحَيِّ . وَفي اللَّيْلَةِ الَّتي تُوُفِّيَ



فيها ذَلِكَ الشَّيْخُ ، كانَ سايْلاس هُوَ الَّذي يَسْهَرُ عَلى خِدْمَتِهِ وَحْدَهُ.
وَقَدِ اكْتَشَفَ عَقِبَ وَفاتِهِ أَنَّ الْحَقيبَةَ الَّتي تَحْتَوي عَلى أَمْوالِهِ قَدْ
سُرِقَتْ مِنْ دُرْجِهِ ، وَأَنَّ مُدْيَةَ سايْلاس قَدْ تُرِكَتْ في ذَلِكَ الدُّرْجِ .
وَعَرَفَ سايْلاس فيما بَعْدُ أَنَّ صَديقَهُ وِلْيَم دين هُوَ الَّذي سَرَقَ مُدْيَتَهُ
مِنْهُ ، وهو فاقِدُ الوَعْيِ ، أَثْناءَ إِحْدى نَوْباتِ المَرَضِ ؛ وَاسْتَعْمَلَها في
السَّطْوِ عَلى النُّقودِ ، بَيْدَ أَنَّ أَهْلَ الحَيِّ لَمْ يُصَدِّقُوا سايْلاس ،
وَأَصْدَرُوا حُكْماً بِإِدانَتِهِ وَطَرْدِهِ مِنَ الحَيِّ . عِنْدَئِذٍ قالَ لَهُ وِلْيَم دين
في تَخابُثٍ وَلُؤْم : « لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ لَكَ شَيْئاً سِوى أَنْ أُصَلِّيَ



مِنْ أَجْلِكَ يا عَزيزي سايْلاس .»

وَخَرَجَ سايْلاس المِسْكينُ عائِداً إِلى مَنْزِلِهِ ، بَعْدَ أَنِ اهْتَزَّ إيمانُهُ
بالنّاسِ اهْتِزازاً عَنيفاً ، يُشْقي روحَهُ اليَأْسُ ، وَيَعْصِفُ بِعَقْلِهِ ما يُشْبِهُ
الجُنونَ . وجَلَسَ في دارِهِ وَحيداً يَنْتَظِرُ رِسالَةً مِنْ سارَة ، تُضَمِّدُ
جِراحَهُ ، وَتَمْسَحُ عَنْ روحِهِ ما أَصابَها مِنْ يَأْسٍ وَقُنوطٍ . وَلَمْ تَلْبَثْ
أَنْ وافَتْهُ الرِّسالَةُ في اليَوْمِ التّالي ، وَلَكِنْ بِغَيْرِ ما كانَ يَتَوَقَّعُ ، فَقَدْ
أَنْبَأَتْهُ سارَة بِأَنَّها تَعْتَبِرُ خِطْبَتَها لَهُ مَفْسوخَةً ، وَصِلَتَها بِهِ مَقْطوعَةً .
وَلَمْ يَمْضِ شَهْرٌ واحِدٌ عَلى ذَلِكَ الحَدَثِ الأَليم حَتّى تَزَوَّجَتْ سارَة

وِلْيم دين .

وَهَكَذا رَحَلَ سايْلاس عَنِ المَدينَةِ مُهَاجِراً إلى قَرْيَةِ راڤيلو ، يَعْتَصِرُهُ الحُزْنُ والألَمُ !

الفَصْلُ الثّاني

سايْلاس يَعْمَلُ في قَرْيَةِ راڤيلو

كانَتْ قَرْيَةُ راڤيلو تَخْتَلِفُ كَثيراً عَنِ المَدينَةِ الَّتي وُلِدَ فيها سايْلاس ، حَتَّى الحُقولُ وَالمَزارِعُ حَوْلَ راڤيلو كانَتْ تَخْتَلِفُ عَنْ تِلْكَ الَّتي تُحيطُ بِمَدينَتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ في هَذِهِ القَرْيَةِ يَعْرِفُ شَيْئاً عَمَّا جَرى لِسايْلاس في مَدينَتِهِ الَّتي هاجَرَ مِنْها ، كَما لَمْ يَكُنْ لَهُ أصْدِقاءُ في تِلْكَ القَرْيَةِ . وَكانَتْ تَسْلِيَتُهُ الوَحيدَةُ هِيَ النَّسْجَ ، وَكانَ هَذا العَمَلُ – بِالإضافَةِ إلى طَهْيِ الطَّعامِ وَتَنْظيفِ الكُوخِ وَتَرْتيبِهِ – يَسْتَغْرِقُ كُلَّ يَوْمِهِ . وَكانَ إنْتاجُهُ مِنْ نَسْجِ الكَتَّانِ يُدِرُّ عَلَيْهِ مَبالِغَ لا بَأسَ بِها مِنَ النُّقودِ الذَّهَبِيَّةِ وَالفِضِّيَّةِ . وَلَقَدْ أخَذَ يَهيمُ بِتِلْكَ النُّقودِ البَرَّاقَةِ وَيَعْشَقُها عِشْقاً بالِغاً ؛ فَما إنْ يَنْتَهي مِنَ العَمَلِ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى يُغْلِقَ بابَ الكُوخِ وَنَوافِذَهُ بِإحْكامٍ ، وَيُخْرِجَ الأكْياسَ الجِلْدِيَّةَ السَّميكَةَ الَّتي يَضَعُ فيها نُقودَهُ ، مِنْ مَخْبَئِها السِّرِّيِّ في

تِلْكَ الحُفْرَةِ الَّتي يعْلوها قالَبٌ مُمَيَّزٌ تَحْتَ أَرْضِ الغُرْفَةِ حَيْثُ يَضَعُ فيها النَّوْلَ . عِنْدَئِذٍ كانَ يَتَناوَلُ النُّقودَ الذَّهَبِيَّةَ وَالفِضِّيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ في شَغَفٍ وَوَلَهٍ شَديدَيْنِ، وَيُقَلِّبُها بِأَصابِعِهِ المُرْتَعِشَةِ في لَذَّةٍ وَسُرورٍ بالغَيْنِ ، ثُمَّ يَعُدُّها وَيُعيدُها في حِرْصٍ وَعِنايَةٍ إِلى مَخْبَئِها تَحْتَ الأَرْضِ .

هكَذا ظَلَّ سايْلاس مارْنَر يَعيشُ في وَحْدَةٍ وَعُزْلَةٍ لِمُدَّةِ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا في تِلْكَ القَرْيَةِ النّائِيَةِ ، لا يَخْتَلِطُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِها ، ولا يخْتَلِطُ بِهِ أَحد . كانَ النَّسْجُ هُوَ لَذَّتَهُ الوَحيدة وشُغْلَهُ الشّاغِلَ في الحَياةِ ، يَقْضي فيهِ سَحابَةَ نَهارِهِ ، وَشَطْرًا مِنْ لَيْلِهِ ؛



يَلْبَثْ أَنْ نَحِلَ جَسَدُهُ وَشَحَبَ وَجْهُهُ وَانْحَنَتْ قامَتُهُ ، فَأَخَذَ الأَطْفالُ يَسْخَرونَ مِنْهُ وَيَدْعونَهُ العَجوزَ سايْلاس مارْنَر ، مَعَ أَنَّ عُمْرَهُ حينَئِذٍ كانَ دونَ الأَرْبَعينَ عامًا . وَفي هذا العامِ الخامِسَ عَشَرَ مِنْ إِقامَتِهِ في راڤيلو ، وَعِنْدَ حُلولِ العيدِ الصَّغيرِ ، وَقَعَ لَهُ حادِثٌ جَلَلٌ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

وَلدا كاس

كانَ الشَّريفُ كاس أغْنى وَأشْهَرَ الرِّجالِ في راڤيلو ؛ فَهُوَ الَّذي يَمْتَلِكُ أكْبَرَ مِساحَةٍ مِنَ الأرْضِ في زِمامِ القَرْيَةِ . وَيَعيشُ في مَنْزِلٍ ضَخْمٍ ذي طِلاءٍ أحْمَرَ ، مَعَ وَلَدَيْهِ غودْفري و دانِسْتان بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ . كانَ غودْفري ، وَهُوَ أكْبَرُ الوَلَدَيْنِ ، شابًّا وَسيمًا طَيِّبَ القَلْبِ ، وَكانَ جَميعُ أهْلِ القَرْيَةِ يُرَجِّحونَ زَواجَهُ بِالآنِسَةِ نانْسي لاميتر ، الَّتي كانَتْ تَصْلُحُ بِحَقٍّ لأنْ تَكونَ سَيِّدَةَ المُسْتَقْبَلِ في المَنْزِلِ الأحْمَرِ الكَبيرِ ؛ لِما تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ رِقَّةٍ وَذَكاءٍ وَدَماثَةٍ . أمّا دانِسْتان، الَّذي كانُوا يَدْعونَهُ دَنْسي في العادَةِ ، فَهُوَ عَلى النَّقيضِ مِنْ أخيهِ ؛ إذْ كانَ ذا قَلْبٍ حَقودٍ أسْوَدَ ، وَلِسانٍ حادٍّ لا يَكُفُّ عَنِ التَّهَجُّمِ عَلى النّاسِ ، وَلا يَتَوَرَّعُ عَنِ الكَذِبِ ؛ كَما كانَ مُولَعًا بالشُّرْبِ وَلَعِبِ القِمارِ .

وَذاتَ مَساءٍ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِر ، كانَ غودْفري كاس يَقِفُ في إحْدى حُجُراتِ البَيْتِ الأحْمَرِ ، يَنْتَظِرُ وُصولَ أخيهِ دانِسْتان ، وَقَدْ بَدَتْ عَلى وَجْهِهِ أماراتُ الحَيْرَةِ وَدَلائِلُ التَّعاسَةِ . وَما إنْ دَلَفَ دَنْسي إلى الحُجْرَةِ وَهُوَ ثَمِلٌ حَتّى صاحَ غودْفري في وَجْهِهِ قائِلاً : « أنْتَ تَعْلَمُ أنَّهُ يَجِبُ أنْ أُسَلِّمَ إيجارَ مَزْرَعَةِ فَوْلَر إلى والِدي في الحالِ ، وَألا أخْبِرَهُ بِأنَّني قَدْ أعْطَيْتُكَ تِلْكَ النُّقودَ . إنَّهُ عَصَبِيُّ المِزاجِ في هَذِهِ الأيّامِ بِسَبَبِ حاجَتِهِ إلى نُقودٍ ، وَلا شَكَّ أنَّكَ تَذْكُرُ ما سَبَقَ أنْ هَدَّدَكَ بِهِ إذا اكْتَشَفَ أنَّكَ عُدْتَ لِسَرِقَةِ نُقودِهِ . لِذا يَجِبُ أنْ تُعيدَ هَذا المَبْلَغَ في أسْرَعِ وَقْتٍ ، هَلْ تَسْمَعُني ؟»

أجابَهُ دَنْسي : « آهِ يا أخي العَزيزَ ، إنَّكَ تَسْتَطيعُ أنْ تُدَبِّرَ هَذا المَبْلَغَ بِطَريقَةٍ ما ، وَتُنْقِذَني مِنْ هَذا المَأزِقِ . لَقَدْ أعْطَيْتَني هَذِهِ النُّقودَ بِنَفْسِكَ ، وَلَسَوْفَ تَسْتَطيعُ دُونَ شَكٍّ أنْ تَرُدَّها لِوالِدي في نِهايَةِ الأمْرِ . وَلا تَنْسَ يا عَزيزي غودْفري أنَّني أسْتَطيعُ في أيِّ وَقْتٍ أنْ أجْعَلَ أبانا يَطْرُدُكَ مِنْ هَذا المَنْزِلِ شَرَّ طَرْدَةٍ ، إذا ما أخْبَرْتُهُ بِزَواجِكَ السِّرِّيِّ بِتِلْكَ المَرْأةِ الشِّرِّيرَةِ السِّكِّيرَةِ الَّتي تُدْعى مُولي فارِن ؛ حينَئِذٍ سَوْفَ أحْتَلُّ أنا مَكانَكَ في هَذا البَيْتِ وَأصْبِحُ الابْنَ المُدَلَّلَ فيهِ. فَمِنَ الأفْضَلِ لَكَ أنْ تُؤَدِّيَ عَنّي مَبْلَغَ مِئَةِ الجُنَيْهِ الَّتي يُطالِبُ بِها أبونا . إنَّني موقِنٌ مِنْ أنَّكَ سَوْفَ تَفْعَلُ ذَلِكَ .»

« وَلكِنْ كَيْفَ أَسْتَطيعُ تَدْبيرَ مِثْلِ هَذا المَبْلَغِ ، وَلَيْسَ في جَيْبي شِلِنٌ واحِدٌ ؟!»

أجابَ دانستان : « ارْكَبْ جَوادَكَ ، وَاذْهَبْ على الفَوْرِ إلى السَّيِّدِ برايس وبِعْهُ لَهُ ؛ إِنَّهُ مُعْجَبٌ بِهِ ،كما تَعْرِفُ ، أَشَدَّ الإعْجابِ، وَيَتَمَنَّى شِراءَهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ .»

« وَلكِنَّني سَوْفَ أَتأخَّرُ في العَوْدَةِ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَخاصَّةً أَنَّني مُرْتَبِطٌ بِالذَّهابِ إلى حَفْلَةِ رَقْصٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ،كَما تَعْلَمُ .»

قالَ دَنْسي : « إِنَّكَ تَتَطَلَّعُ إلى مُراقَصَةِ الآنِسَةِ نانْسي هَذا المَساءَ عَسى أَنْ تَنالَ إِعْجابَها وَرِضاها . لا شَكَّ أَنَّكَ تُؤَمِّلُ في أَنْ تَموتَ مُولي المِسْكينَةُ قَريباً مِنْ جَرَّاءِ ما تَتَعاطاهُ مِنْ خَمْرٍ وَمُخَدِّراتٍ ، فَتَفوزَ بِالزَّواجِ بِالآنِسَةِ نانْسي الَّتي تَجْهَلُ الآنَ تَماماً أَنَّكَ مُتَزَوِّجٌ بِواحِدَةٍ سِواها !»

صاحَ غودْفري غاضِباً : « لَقَدْ ضاقَ صَدْري بِجُحودِكَ وَتَطاوُلِكَ ، وَأَرى أَنَّهُ لا مَناصَ لي مِنَ الاعْتِرافِ لِوالِدي بِزَواجي ، وَطَلَبِ الصَّفْحِ مِنْهُ لأَتَخَلَّصَ مِنْ تَهْديدِكَ المُسْتَمِرِّ لي ، سِيَّما وَأَنَّ مُولي تُهَدِّدُني أَيْضاً بِإِفْشاءِ السِّرِّ . لَقَدِ اسْتَلَبَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ كُلَّ نُقودي يا دَنْسي ، وَلَمْ تَتْرُكْ لي شَيْئاً أَشْتَري صَمْتَها بِهِ !»

وَتَساقَطَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْ غودْفري . إِنَّهُ يَخْشى غَضَبَ أَبيهِ ، وَحِرْمانَهُ مِنَ الميراثِ ، وَيَخْشى أَلا يَتَمَكَّنَ مِنَ الزَّواجِ بِنانْسي يَوْماً ما ، وَهُوَ ما لا يَسْتَطيعُ غودْفري المِسْكينُ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَزَمَ عَلى الرُّضوخِ لِرَغْبَةِ أَخيهِ ، وَالذَّهابِ في اليَوْمِ التَّالي إلى السَّيِّدِ برايْس لِبَيْعِ الجَوادِ .

وَتَطَلَّعَ غودْفري إلى أَخيهِ في حُزْنٍ وَمَرارَةٍ قائِلاً : « مَتى سَتَكُفُّ عَنْ أَفْعالِكَ الشَّائِنَةِ الَّتي تُسَبِّبُ لِيَ المَتاعِبَ دائِماً يا دَنْسي ؟ سَوْفَ أَنْطَلِقُ غَداً لِبَيْعِ جَوادي المَحْبوبِ ، أَثْمَنِ شَيْءٍ أَمْتَلِكُهُ الآنَ في الوُجودِ !»

قالَ دَنْسي : « حَسَنٌ ، مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَبيعَ لَكَ هَذا الفَرَسَ الأَصيلَ غَداً بِنَفْسي ؛ فَأَنا أَمْهَرُ مِنْكَ في المُساوَمَةِ .»

« هَلْ تَتَعَهَّدُ بِأَنْ تُسَلِّمَني الثَّمَنَ بِأَمانَةٍ ؟»

أَجابَ دَنْسي : « أَجَلْ بِالتَّأْكيدِ ، وَلَسَوْفَ أُحَصِّلُ لَكَ عَلى مِئَةٍ وَعِشْرينَ جُنَيْهاً ثَمَناً لَهُ ، لا مِئَةِ جُنَيْهٍ فَقَطْ .»

وَأَغْلَقَ دَنْسي البابَ وَراءَهُ بِصَوْتٍ عالٍ ، تارِكاً أَخاهُ الأَكْبَرَ الَّذي بَلَغَ السَّادِسَةَ وَالعِشْرينَ مِنَ العُمْرِ لأَفْكارِهِ الحَزينَةِ القاتِمَةِ . بَيْدَ أَنَّ

غودْفري كانَ مَلوماً كَذَلِكَ فيما وَصَلَتْ إِلَيْهِ حالُهُ مِنَ التَّعاسَةِ وَالشَّقاءِ ؛ فَلَقَدْ أَقْدَمَ عَلى الزَّواجِ سِراً بامْرَأَةٍ سَيِّئَةِ السُّمْعَةِ بِسَبَبِ ضَعْفِ أَخْلاقِهِ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ طيبَةِ قَلْبِهِ الشَّديدَةِ . وَكانَ يُحِبُّ نانْسي لاميتر ، وَيَحْلُمُ بِالسَّعادَةِ الَّتي سَوْفَ تُهَيِّئُها لَهُ هَذِهِ الفَتاةُ الجَميلَةُ الرَّائِعَةُ ، إِذا ما اسْتَطاعَ أَنْ يَتَزَوَّجَها . غَيْرَ أَنَّ سَقْطَتَهُ الطَّائِشَةَ بِالزَّواجِ بِمُولي فارِن كانَتْ تَقِفُ حائِلاً مَنيعاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ السَّعادَةِ ! وَكانَ احْتِمالُ أَنْ يَعْرِفَ والِدُهُ خَبَرَ زَواجِهِ الفاشِلِ يَزيدُ مَوْقِفَهُ حَرَجاً وَسُوءاً . وَكانَ مُهَدَّداً بِفَضيحَةٍ لا يُمْكِنُ بَعْدَها أَنْ يَرى نانْسي مَرَّةً أُخْرى .

الفَصْلُ الرّابِعُ

دانِسْتان وَالجَواد

انْطَلَقَ دانِسْتان بِالجَوادِ مُبَكِّراً في صَباحِ اليَوْمِ التَّالي لِيَبيعَهُ لِلسَّيِّدِ برايْس . وَمَرَّ في طَريقِهِ بِكُوخِ سايْلاس مارْنَر الَّذي كانَ يَبْدو كَئيباً مُوحِشاً ، يَزيدُ في كَآبَتِهِ وَوَحْشَتِهِ ذَلِكَ المَحْجَرُ القَديمُ الَّذي يُجاوِرُهُ ، بِما يَعْلوهُ مِنْ ماءِ الفَيَضانِ الموحِلِ الَّذي يَضْرِبُ لَوْنُهُ إِلى الحُمْرَةِ . وَسَمِعَ دانِسْتان الضَّوْضاءَ الَّتي تَصْدُرُ عَنْ نَوْلِ سايْلاس ، وَخَطَرَ لَهُ أَنَّ نُقودَ الرَّجُلِ لا بُدَّ أَنْ تَكونَ مُخَبَّأَةً في مَكانٍ قَريبٍ ، فَلَقَدْ سَمِعَ الكَثيرَ مِنْ قَبْلُ عَمَّا يَكْتَسِبُهُ سايْلاس مارْنَر مِنْ مالٍ ، وَعَنْ حِرْصِهِ الشَّديدِ عَلَيْهِ . وَهَمَّ بِأَنْ يَرْجِعَ إِلى أَخيهِ غودْفري فَيَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَقْتَرِضَ نُقوداً مِنْ سايْلاس بَدَلاً مِنْ بَيْعِ الجَوادِ ، غَيْرَ أَنَّهُ آثَرَ تَأْجيلَ ذَلِكَ الأَمْرِ إِلى حينٍ .

وَقابَلَ دَنْسي السَّيِّدَ برايْس ، وَبَعْدَ مُساوَمَةٍ طَويلَةٍ باعَ لَهُ الجَوادَ



الّذي زَعَمَ أنّهُ مِلْكٌ خاصٌ بِهِ ، بِمَبْلَغِ مِئةٍ وَعِشرين جُنيْهاً ، واتّفقا عَلى أنْ يَدْفَعَ برايس الثّمَنَ فَوْرَ تَسْليم الجَوادِ سَليماً في إسْطَبْلِهِ الخاصّ . وسُرَّ دانِسْتان كثيراً بِهذا الاتّفاقِ ، وَاشْتَعلَ نَشْوَةً وحماسَةً، فَزادَ مِنْ سُرْعَةِ الجَوادِ في العَدْوِ ، لِيَصِلَ بِهِ في أقْرَبِ وَقْتٍ إلى إسْطَبْلِ السَّيّدِ برايس ؛ لكِنّ الجَوادَ لَمْ يَلْبَثْ أنْ جُرِحَ جُرْحاً بالِغاً وَهُوَ يَتَخطّى في عَدْوِهِ أحَدَ الحَواجِزِ ، فَسَقَطَ عَلى الأرضِ ثُمَّ ماتَ. وَمِنْ سوءِ الحَظّ لَمْ يُشاهِدْ هذا الحادثَ أحَدٌ ، أمّا دانِسْتان فَقَدْ سارَ بِأسْرَعِ ما يَسْتَطيعُ في اتّجاهِ راڤيلو .

بَدأ الظّلامُ يَهْبِطُ وَيُسْدِلُ أسْتارَهُ الكَثيفَةَ فَوْقَ الأرْضِ ، وَأخَذَ المَطَرُ يَتَساقَطُ رَذاذاً مُتَتابِعاً مِمّا أحالَ الجَوَّ إلى عَتَمَةٍ شَديدَةٍ ، اسْتَطاعَ خِلالَها دانِسْتان أنْ يَتَحَسَّسَ طَريقَهُ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ ، مُسْتَعيناً بِسَوْطِ الرُّكوبِ الجَميلِ ذي المِقْبَضِ الذَّهَبِيِّ ، الّذي كانَ قَدْ أخَذَهُ بِغَيْرِ إذْنِ صاحِبِهِ غودْفري . وَما إنْ رَأى ضَوْءاً يَسْطَعُ في الظّلامِ ، حَتّى أدْرَكَ أنّهُ لا بُدَّ أنْ يَكونَ آتِياً مِنْ كُوخِ سايْلاس مارْنَر ، الّذي كانَ دَنْسي يُفَكّرُ في أمْوالِهِ طَوالَ الوَقْتِ أثْناءَ سَيْرِهِ . وَحينَئِذٍ عَزَمَ عَلى التّوَقُّفِ عِنْدَ الكُوخِ مُتَعَلِّلاً بِاقْتِراضِ مِصْباحٍ يُعينُهُ عَلى مُواصَلَةِ السَّيْرِ في الظّلامِ . وَقَرَعَ دَنْسي بابَ سايْلاس بِشِدَّةٍ ، غَيْرَ أنّهُ لَمْ يَتَلَقَّ جَواباً . وَبَعْدَ أنْ تَرَدَّدَ بُرْهَةً قَصيرَةً دَفَعَ البابَ الّذي لَمْ

يَكُنْ مُغْلَقاً بِمِزْلاج ، وَدَلَفَ إلى داخِلِ الكُوخ حَيْثُ وَجَدَ ناراً مُشْتَعِلَةً ، وَوَجَدَ عَشاءَ سايْلاس يُطْهى فَوْقَها ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ أثَراً لِسايْلاس ذاتِهِ .

جَلَسَ دانِسْتان أمامَ النّارِ ، وَأخَذَ يُفَكِّرُ : « تُرى أيْنَ يَكونُ النَّسّاجُ ؟ هَلْ خَرَجَ لِقَضاءِ حاجَةٍ فَوَقَعَ في الحُفْرَةِ العَميقَةِ المُجاوِرَةِ ؟ وَإذا كانَ قَدْ ماتَ فَمَنْ سَيَأْخُذُ نُقودَهُ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَأيْنَ توجَدُ هَذِهِ النُّقودُ ؟»

وَتَلَفَّتَ دانِسْتان حَوْلَهُ فاسْتَرْعى نَظَرَهُ أنَّ القَوالِبَ الَّتي تَحْتَ النَّوْلِ قَدْ غُطِّيَتْ بِالرِّمالِ بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ . وَسُرْعانَ ما رَكَعَ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَرَفَعَ اثْنَيْنِ مِنْ تِلْكَ القَوالِبِ وَنَظَرَ ؛ فَإذا حُفْرَةٌ كَبيرَةٌ تَبْدو تَحْتَ ذَيْنِكَ القالَبَيْنِ ، وَتَسْتَقِرُّ في داخِلِها حَقيبَتانِ جِلْدِيَّتانِ لا يُمْكِنُ أنْ تَحْتَوِيا عَلى شَيْءٍ غَيْرِ النُّقودِ . وَذُهِلَ الشّابُّ الصَّغيرُ المُسْتَهْتِرُ بادِئَ الأمْرِ ، ثُمَّ اعْتَراهُ انْفِعالٌ شَديدٌ لِمَرْأى تِلْكَ الثَّرْوَةِ الطّائِلَةِ . وَسُرْعانَ ما جَذَبَ الحَقيبَتَيْنِ إلى الخارِجِ ، ثُمَّ أخَذَ يَتَحَسَّسُ بِيَدَيْهِ جَوانِبَ الحُفْرَةِ وَقاعَها عَسى أنْ يَجِدَ شَيْئاً آخَرَ .

وَلَمّا لَمْ يَعْثُرْ عَلى المَزيدِ ، حَمَلَ الحَقيبَتَيْنِ المَليئَتَيْنِ وَخَرَجَ وَأغْلَقَ وَراءَهُ بابَ الكُوخ بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ ؛ حَتّى لا يَتَسَرَّبَ مِنْهُ نورٌ إلى

الخارِجِ فَيَكْشِفَهُ أحَدُ المارَّةِ . وَما إنْ رَأى الفَتى الشَّقِيُّ نَفْسَهُ آمِناً في ظَلامِ الطَّريقِ الحالِكِ ، حَتَّى انْطَلَقَ عائِداً إلى مَنْزِلِهِ تَحْتَ المَطَرِ الغَزيرِ ، وَقَلْبُهُ يَكادُ يَقْفِزُ مِنَ الفَرْحَةِ . وَأخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإثْمِ ، فَلَمْ يُؤَرِّقْهُ نَدَمٌ عَلى ما ارْتَكَبَ مِنْ وِزْرٍ جَسيمٍ !

الفَصْلُ الخامِسُ
الكَنْزُ الضّائِعُ

عِنْدَما وَلّى دانسْتان الأدْبارَ ، لَمْ يَكُنْ سايْلاس مارْنَر يَبْعُدُ عَنْ كُوخِهِ أكْثَرَ مِنْ تِسْعينَ مِتْراً ، وَكانَ عائِداً حينَئِذٍ مِنَ القَرْيَةِ ، يَحْمِلُ مِصْباحاً يَكْشِفُ لَهُ الطَّريقَ في الظَّلامِ الدّامِسِ . كانَتْ قَدَماهُ مُتْعَبَتَيْنِ ، وَلَكِنَّ ذِهْنَهُ كانَ يَنْعَمُ بِالسَّلامِ وَالاطْمِئْنانِ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَرْكِهِ مَنْزِلَهُ وَكَنْزَهُ دونَ حِراسَةٍ . وَكانَ سايْلاس قَدْ ذَهَبَ إلى القَرْيَةِ لِيُحْضِرَ بِضْعَةَ أشْياءَ لازِمَةٍ لِلنَّوْلِ ، كَيْ يَسْتَأنِفَ عَمَلَهُ الْمُعْتادَ في اليَوْمِ التّالي . وَلَمْ يَكُنْ يَخْشى دُخولَ أحَدٍ إلى كوخِهِ في غَيْبَتِهِ، فَذَلِكَ ما لَمْ يَحْدُثْ قَطُّ طَوالَ السَّنَواتِ الخَمْسَ عَشْرَةَ الماضِيَةِ الَّتي عاشَها في راڤيلو ، فَلِماذا يَتَوَقَّعُ حُدوثَهُ في هَذِهِ اللَّيْلَةِ المُمْطِرَةِ المُظْلِمَةِ ؟

وَأخَذَ سايْلاس يُفَكِّرُ في عَشائِهِ الَّذي كانَ قَدْ تَرَكَهُ لِيَنْضَجَ فَوْقَ

النّارِ ؛ كانَ عَشاءً جَيِّداً شَهِيًّا يَتَكَوَّنُ مِنْ قِطْعَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ اللَّحْمِ أهْدَتْها إلَيْهِ في الصَّباحِ سَيِّدَةٌ طَيِّبَةُ القَلْبِ مِنْ رَبّاتِ البُيوتِ اللائي كانَ يَنْسِجُ لَهُنَّ قُماشاً جَيِّدَ الصُّنْعِ .

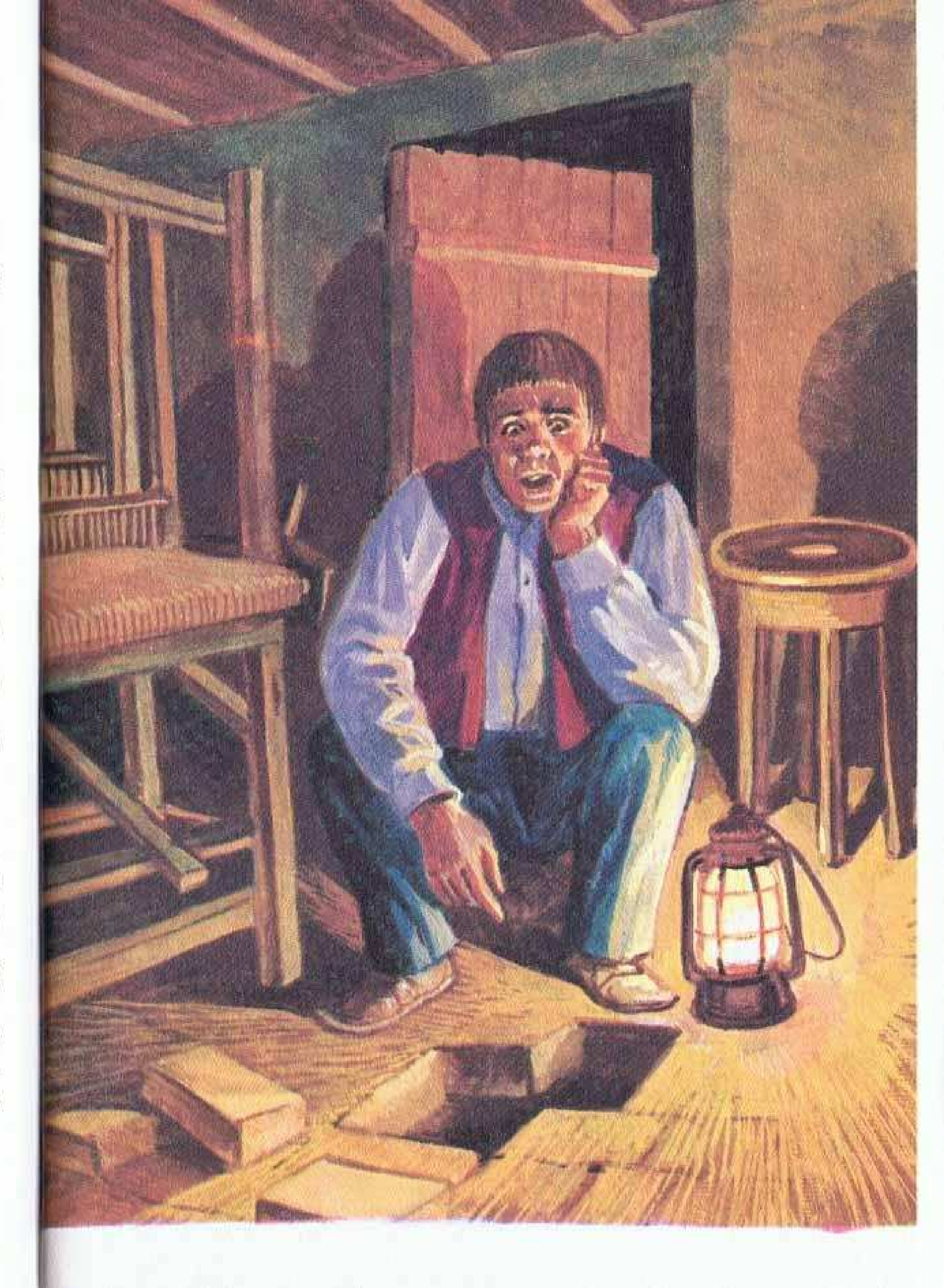
وَتَقَدَّمَ إلى الكُوخِ مُفْعَمَ القَلْبِ بِالرِّضا وَالسُّرورِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ بادِئَ الأمْرِ أنْ يَرى بِعَيْنَيْهِ شَيْئاً مُخْتَلِفاً في الدّاخِلِ . وَجَلَسَ قُرْبَ النّارِ الْتِماساً لِلدِّفْءِ ، وَمَدَّ البَصَرَ إلى طَعامِهِ . وَلَوْ أُتيحَ لَكَ أنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ حينَئِذٍ عَلى ضَوْءِ النّارِ المُشْتَعِلَةِ ، لأدْرَكْتَ لِماذا كانَ أهْلُ القَرْيَةِ يَتَطَلَّعونَ إلَيْهِ بِمَزيجٍ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالرِّيبَةِ ؛ كانَ وَجْهُهُ شاحِباً، وَعَيْناهُ مُجْهَدَتَيْنِ تُرْسِلانِ نَظَراتٍ مُتَوَجِّسَةً غَريبَةً ، كَما كانَ جَسَدُهُ نَحيلاً مُقَوَّساً ، غَيْرَ أنَّهُ كانَ – في الواقِعِ – إنْساناً طَيِّباً يَفْضُلُ الكَثيرينَ مِنَ النّاسِ ، كانَ وَديعاً هادِئاً يَمْقُتُ الأذَى . أجَلْ ، كانَ بَخيلاً يَعْبُدُ الذَّهَبَ وَلايُحِبُّ الإنْفاقَ ، غَيْرَ أنَّ حِرْصَهُ الشَّديدَ عَلى المالِ كانَ يَعودُ إلى ضَعْفِ إيمانِهِ ، وَفِقْدانِهِ الثِّقَةَ بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ البَشَرِ ، بَعْدَ أنْ تَحَطَّمَ حُبُّهُ ، وَأُذِلَّتْ كِبْرِياؤُهُ ، وَغَدَرَ بِهِ أقْرَبُ النّاسِ إلَيْهِ .

وَلَمْ يَكَدْ سايْلاس يَشْعُرُ بِالدِّفْءِ ، حَتّى عاوَدَهُ الحَنينُ لِرُؤْيَةِ نُقودِهِ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ تَأجيلَ ذَلِكَ الأمْرِ إلى ما بَعْدَ العَشاءِ ؛ فَقَدْ كانَ يَتَلَهَّفُ إلى نَثْرِ القِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ وَالفِضِّيَّةِ أمامَهُ عَلى المِنْضَدَةِ ،

وَالتَّلَذُّذِ بِمَرْآها أَثْناءَ تَناوُلِهِ الطَّعامَ .

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَهَضَ واقِفاً ، وَوَضَعَ مِصْباحَهُ عَلى الأَرْضِ قَرِيباً مِنَ النَّوْلِ ، ورَكَعَ لِيُزِيحَ الرِّمالَ بَعيداً ، ثُمَّ رَفَعَ القَوالِبَ الَّتي كانَتْ تُغَطّي الحَقيبَتَيْنِ الجِلْدِيَّتَيْنِ . وَما إِنْ أَبْصَرَ الحُفْرَةَ خالِيَةً حَتّى بُهِتَ وَاجْتاحَهُ رُعْبٌ عَظيمٌ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَنَّ نُقودَهُ سُرِقَتْ ، وَذَهَبَتْ إِلى غَيْرِ رَجْعَةٍ ! وَدَفَعَ بِالمِصْباحِ إِلى داخِلِ الحُفْرَةِ ، وَجالَ بِهِ في جَميعِ أَرْكانِها ، عَلى حينِ كانَ جَسَدُهُ كُلُّهُ يَرْتَعِشُ ، إِلى أَنْ سَقَطَ المِصْباحُ أَخيراً مِنْ يَدِهِ ، وَاعْتَمَدَ المِسْكينُ رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَذَكَّرُ ما فَعَلَهُ في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ ، فَلَعَلَّهُ يَكونُ قَدْ أَخْفى الحَقيبَتَيْنِ في مَوْضِعٍ آخَرَ . وَسَرْعانَ ما قَفَزَ مِنْ مَكانِهِ وَأَخَذَ يُفَتِّشُ الكُوخَ شِبْراً شِبْراً ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَن اسْتَسْلَمَ لِلْحَقيقَةِ القاسِيَةِ المُرَوِّعَةِ : وَهِيَ أَنَّ كَنْزَهُ الثَّمينَ قَدْ فُقِدَ !

عِنْدَئِذٍ خَطَرَ لَهُ أَنَّ لِصّاً قَدْ تَسَلَّلَ إِلى الكُوخِ وَسَرَقَ مالَهُ . وَجَلَبَتْ لَهُ تِلْكَ الفِكْرَةُ شَيْئاً مِنَ الرّاحَةِ وَالعَزاءِ ؛ إِذْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللُّصوصَ غالِباً مايُقْبَضُ عَلَيْهِمْ ، فَتُؤْخَذُ مِنْهُمُ المَسْروقاتُ ، وَتُرَدُّ إِلى أَصْحابِها . وَفَتَحَ البابَ لِيَبْحَثَ عَنْ آثارِ أَقْدامٍ في الخارِجِ ، وَلكِنَّ المَطَرَ المِدْرارَ كانَ قَدْ عَفّى عَلى كُلِّ أَثَرٍ لِلأَقْدامِ عَلى أَرْضِ الطَّريقِ. وَاضْطَرَبَ سايْلاس اضْطِراباً شَديداً ، وَلَمْ يَدْرِ ماذا يَفْعَلُ ! غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ



يَلْبثْ أنْ هَرْوَلَ إلى القَرْيَةِ ، وَسْطَ الظَّلامِ وَالأمْطارِ ، لِيُعلِنَ هُناكَ عَنْ كَنْزِهِ الثَّمينِ الَّذي فُقِدَ ، عَسى أنْ يَقْبِضَ رُؤَساءُ القَرْيَةِ عَلى اللِّصِّ ، وَيَرُدُّوا إلَيْهِ مالَهُ المَسْروقَ . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ مِنَ القَرْيَةِ أبْطأَ السَّيْرَ ، وَمَرَّ أمامَ الفُنْدُقِ الصَّغيرِ المُسَمَّى بِقَوْسِ قُزَحَ ، الَّذي يَقَعُ عَلى مَشارِفِ القَرْيَةِ ، وَالَّذي يَجْتَمِعُ فيهِ أهْلُ القَرْيَةِ لِلسَّمَرِ وَتَناوُلِ الشَّرابِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أنْ دَلَفَ إلى داخِلِ الفُنْدُقِ .

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، كانَتْ هُناكَ حَفْلَةُ رَقْصٍ في بَيْتِ السَّيِّدَةِ أوسغود بِمُناسَبَةِ عيدِ ميلادِها . وَلِهذا فَإنَّ أحَداً مِنْ أهْلِ القَرْيَةِ المَعْروفينَ لَمْ يَقْصِدْ فُنْدُقَ قَوْسِ قُزَحَ كَما اعْتادُوا أنْ يَفْعَلوا كُلَّ مَساءٍ . عَلى أنَّ أشْخاصاً قَليلينَ كانُوا مُجْتَمِعينَ هُناكَ يَقْطَعونَ الوَقْتَ بِالحَديثِ عَنِ الأشْباحِ ، عِنْدَما ظَهَرَ سايْلاس مارْنَر أمامَهُمْ فَجْأةً، وَقَدْ بَدا كَشَبَحٍ مِنْ تِلْكَ الأشْباحِ الَّتي كانُوا يَتَحَدَّثونَ عَنْها . وَرانَ الصَّمْتُ عَلى الجالِسينَ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ سايْلاس أنْ يَنْطِقَ بِشَيْءٍ في الحالِ بِسَبَبِ إرْهاقِهِ وَانْفِعالِهِ الشَّديدَيْنِ . عِنْدَئِذٍ بادَرَهُ السَّيِّدُ إسْنِل ، صاحِبُ الفُنْدُقِ ، بِسؤالِهِ : « ماذا تُريدُ يا سَيِّدُ مارْنَر ، وَما الَّذي أتى بِكَ ؟ »

أجابَ سايْلاس وَهُوَ لا يَزالُ يَلْهَثُ : « لَقَدْ سُرِقْتُ يا سَيِّدُ إسْنِل !

سُرِقَتْ كُلُّ نُقودي ! أُريدُ مُقابَلَةَ ضابِطِ الشُّرْطَةِ وَالقاضي وَالشَّريفِ كاس ، عُمْدَتِنا . »

صاحَ السَّيِّدُ إسْنِل : « أمْسِكْ بِهِ يا جيم ، فَهُوَ يَبْدو مَريضاً ، وَيوشِكُ أنْ يَسْقُطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ! »

وَتَطَلَّعَ سايْلاس إلى جيم ، وَراوَدَهُ شَكٌّ في أنَّهُ السّارِقُ لأنَّهُ جاءَ إلى كُوخِهِ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلُ أثْناءَ تَجْوالِهِ لِصَيْدِ الأرانِبِ . وَحَدَجَ سايْلاس جيم بِنَظْرَةٍ قاسِيَةٍ ، ثُمَّ صاحَ قائِلاً : «جيم رُودني !»

أجابَ جيم وَهُوَ يَرْتَعِشُ قَليلاً : « نَعَمْ يا سَيِّدُ مارْنَر ... ماذا تُريدُ مِنِّي ؟ »

« إذا كُنْتَ أنْتَ الَّذي سَرَقْتَ نُقودي ، فَأعِدْها إلَيَّ في الحالِ . لَنْ أقولَ أكْثَرَ مِنْ هَذا . رُدَّ إلَيَّ النُّقودَ ، وَسَوْفَ أُعْطيكَ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً كَبيرَةً . »

اِسْتَشاطَ جيم غَضَباً ، وَصاحَ عَلى الفَوْرِ وَهُوَ يَكادُ يَهُمُّ بِضَرْبِهِ قائِلاً : « أنا سَرَقْتُ نُقودَكَ ؟! كَرِّرْ ما قُلْتَ ثانِياً وَسَوْفَ أجْعَلُكَ تَنْدَمُ عَلى تَوْجيهِ مِثْلِ هَذِهِ التُّهْمَةِ إلَيَّ ! »

عِنْدَئِذٍ أخَذَ إسْنِل بِذِراعِ سايْلاس قائِلاً : « تَعالَ يا سَيِّدُ مارْنَر .

لا تُوجِّهِ التُّهَم جُزافًا ، وَلْنَتحدَّثْ بِهُدوءٍ وَسَنُصْغي إِلَيْكَ . وَالآنَ اجْلِسْ هُنا وَقُلْ ما تُريدُ بِوُضوح .»

وَأعانَ سايْلاس على خَلْعِ سُتْرَتِهِ المُبْتَلَّةِ ، ثُمَّ أجْلَسَهُ في كُرْسِيٍّ أمامَ المِدْفَأةِ ، حَيْثُ اسْتطاعَ كُلُّ شَخْصٍ مِنَ الحاضِرينَ أنْ يَراهُ .

وَقصَّ سايْلاس قِصَّتَهُ بِالتَّفْصيلِ ، وَكانَ الحاضِرونَ يُقاطِعونَهُ بالأسْئِلَةِ بَيْنَ الحينِ وَالآخرِ . وَتأثَّرَ الجَميعُ كَثيراً لِما أحَسُّوا بِهِ مِنْ صِدْقِ القِصَّةِ الَّتي رَواها ، وَما تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مُصيبَةٍ جَسيمَةٍ نَزَلَتْ بِهِ ، فَأحاطوهُ بِعَطْفِهِمْ ، وَشارَكوهُ مَشاعِرَهُ الحَزينَةَ . وَتَعَزَّى سايْلاس قَليلاً بِذَلِكَ العَطْفِ الَّذي لَمْ يَألَفْهُ مِنْ أحَدٍ مِنْ قَبْلُ .

وَبَعْدَ أنْ أتَمَّ مارْنَر قِصَّتَهُ ، قالَ لَهُ إسْنِل : « إنَّ جيم رودْني لَمْ يَرْتَكِبْ هَذِهِ الجَريمَةَ ، يا سَيِّدُ مارْنَر ، فَلَقَدْ كانَ جالِساً مَعي هُنا مُنْذُ أنْ غادَرْتَ كوخَكَ إلى أنْ عُدْتَ إلَيْهِ وَاكْتَشَفْتَ حادِثَ السَّرِقَةِ . إنَّ جيم رَجُلٌ شَريفٌ ، وَلا يَجْدُرُ بِكَ أنْ تُلْقِيَ التُّهْمَةَ عَلَيْهِ بِرُعونَةٍ هَكَذا .»

عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ سايلاس فَجْأةً كَيْفَ اتُّهِمَ هُوَ نَفْسُهُ ظُلْماً بِالسَّرِقَةِ قَبْلَ مَجيئِهِ إلى راڤيلو ، فَنَهَضَ في الحالِ ، وَتَوَجَّهَ إلى جيم قائِلاً :

« إنَّني آسِفٌ يا جيم ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ مُخْطِئاً وَأحْمَقَ ! لَقَدْ ظَنَنْتُ بِكَ السُّوءَ لأنَّكَ كُنْتَ الشَّخْصَ الوَحيدَ الَّذي جاءَ مِنْ قَبْلُ إلى مَنْزِلي ، وَلَكِنَّني الآنَ أعْتَذِرُ عَنِ اتِّهامي لَكَ . أنا الآنَ لا أتَّهِمُ أيَّ شَخْصٍ . إنَّني .. إنَّني ... »

وَرَفَعَ سايْلاس يَدَيْهِ إلى رَأْسِهِ في بُؤْسٍ وَتَعاسَةٍ ، ثُمَّ أرْدَفَ قائِلاً : « إنَّني سَأحاوِلُ فَقَطْ أنْ أفَكِّرَ أيْنَ يُمْكِنُ أنْ تَكونَ نُقودي قَدْ ذَهَبَتْ .»

وَسَألَهُ أحَدُ الحاضِرينَ في شَفَقَةٍ وَرِثاءٍ : « كَمْ مِنَ النُّقودِ كانَ في الحَقيبَتَيْنِ يا سَيِّدُ مارْنَر عَلى وَجْهِ التَّقْريبِ ؟»

أجابَ سايْلاس في الحالِ : « مِئَتانِ وَاثْنانِ وَسَبْعونَ جُنَيْهاً وَاثْنا عَشَرَ شِلِناً وَسِتَّةُ بِنْساتٍ ، كَما عَدَدْتُها في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ .»

قالَ الرَّجُلُ : « إذاً فَهِيَ لَيْسَتْ عَسيرَةً عَلَى الحَمْلِ ، وَلا بُدَّ أنَّ مارّاً في الطَّريقِ قَدْ دَخَلَ الكوخَ وَسَرَقَ النُّقودَ . وَالآنَ يَجِبُ أنْ تَذْهَبَ بِرُفْقَةِ اثْنَيْنِ مِنَ الفُنْدُقِ لِضابِطِ الشُّرْطَةِ في مَنْزِلِهِ لِتَرْوِيَ لَهُ قِصَّتَكَ ، فَالرَّجُلُ مَريضٌ وَ راقِدٌ في فِراشِهِ .»

وَاسْتَبْدَلَ سايْلاس بِمَلابِسِهِ المُبْتَلَّةِ مَلابِسَ أخْرى جافَّةً أعْطَوْها لَهُ

فى الفُنْدُقِ ، وَخَرَجَ مَرَّةً أخْرى ، وَسارَ وَسْطَ الوَحْلِ وَالأمْطارِ ، مُتَّجِهاً إلى مَنْزِلِ ضابِطِ الشُّرْطَةِ .

الفَصْلُ السّادِسُ

غُودْفري وَكارِثَةُ الجواد

عِنْدَما عادَ غودْفري مِنْ حَفْلَةِ مَدام أوسْغود في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، عَرَفَ أنَّ أخاهُ دَنْسي لَمْ يَعُدْ بَعْدُ إلى البَيْتِ ، وَلَمْ يَدْهَشْ كَثيراً لِذَلِكَ ؛ إذْ ظَنَّ أنَّ بَيْعَ الجَوادِ اسْتَغْرَقَ وَقْتاً أطْوَلَ ، أوْ أنَّ دَنْسي اُضْطُرَّ لِلْمَبيتِ في أحَدِ الفَنادِقِ بِقَرْيَةٍ أخرى بِسَبَبِ غَزارَةِ الأمْطارِ . على أنَّ غُودْفري كانَ مَشْغولَ الفِكْرِ حينَئِذٍ بِنَظَراتِ نانْسي لاميتر وَسُلوكِها مَعَهُ خِلالَ الحَفْلِ ؛ كَما كانَ يَتَمَلَّكُهُ السُّخْطُ على نَفْسِهِ وَحَياتِهِ ، وَهُوَ السُّخْطُ الَّذي كانَ يُحِسُّ بِهِ غودْفري دائِماً عَقِبَ كُلِّ لِقاءٍ مَعَ مَحْبوبَتِهِ الفاتِنَةِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي انْتَشَرَ خَبَرُ سَرِقَةِ ثَرْوَةِ سايْلاس مارْنَر في القَرْيَةِ كُلِّها . واهْتَمَّ غُودْفري كاس ، مِثْلَ سائِرِ أهْلِ القَرْيَةِ بِجَمْعِ المَعْلوماتِ عَنْ ذَلِكَ الحادِثِ المُؤْسِفِ . وَبِمُعايَنَةِ المَحْجَرِ المُجاوِرِ

لِلكُوخِ المَسْرُوقِ ، وُجِدَ بِالقُرْبِ مِنْهُ صُنْدوقٌ صَغيرٌ يَحْتَوي عَلى حَجَرٍ مِنَ الصَّوّانِ وَقِطْعَةٍ مِنَ الصُّلْبِ . تِلْكَ الأَشْياءُ الَّتي كانَتْ تُسْتَخْدَمُ في ذَلِكَ الحينِ لِإشْعالِ النّارِ قَبْلَ اخْتِراعِ أَعْوادِ الثِّقابِ . وَلَمّا كانَ سايْلاس لا يَمْتَلِكُ ذَلِكَ الصُّنْدوقَ ، فَقَدْ شاعَ بَيْنَ النّاسِ أَنَّهُ يَخُصُّ السّارِقَ .

وَعُقِدَ اجْتِماعٌ في فُنْدُقِ قَوْسِ قُزَحَ يَضُمُّ أَحَدَ شُيوخِ القَرْيَةِ وَالشَّريفَ كاس وَآخَرينَ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ لِبَحْثِ الأَمْرِ . وَقالَ السَّيِّدُ إِسْنِل إِنَّ بائِعاً مُتَجَوِّلاً حَضَرَ إِلى مَنْزِلِهِ مُنْذُ نَحْوِ شَهْرَيْنِ ، وَكانَ يَحْمِلُ ضِمْنَ بِضاعَتِهِ صُنْدوقاً لِلإِشْعالِ ، وَرَجَّحَ السَّيِّدُ إِسْنِل أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ هُوَ السّارِقُ ، سِيَّما وَأَنَّهُ لَمْ يَطْمَئِنَّ حينَئِذٍ إِلى مَظْهَرِهِ وَنَظَراتِهِ. وَأَمَّنَ الحاضِرونَ عَلى كَلامِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّ سايْلاس أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ البائِعَ المُتَجَوِّلَ لايُمْكِنُ أَنْ يَكونَ السّارِقَ ، لِأَنَّهُ حينَما أَعْلَنَهُ، عِنْدَما حَضَرَ إِلى الكُوخِ ، بِأَنَّهُ لَيْسَ في حاجَةٍ إِلى شَيْءٍ مِنْ بِضاعَتِهِ، انْصَرَفَ في الحالِ ، وَلَمْ يَدْخُلِ الكُوخَ .

وَعَلى الرَّغْمِ مِنِ انْشِغالِ غودْفري كاس بِما حَدَثَ لِسايْلاس مارْنَر ، فَإِنَّهُ بَدَأَ يُحِسُّ بِالقَلَقِ بِخُصوصِ جَوادِهِ وَأَخيهِ دانِسْتان ، وَأَخَذَ يَلومُ نَفْسَهُ عَلى الثِّقَةِ بِشَقيقِهِ وَتَفْريطِهِ في جَوادِهِ الثَّمينِ . كانَ

يَخْشى أَنْ يَكونَ دانِسْتان قَدْ خَدَعَهُ ، وَهَرَبَ بِالجَوادِ إِلى جِهَةٍ بَعيدَةٍ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَكِبَ حِصاناً وَسارَ بِهِ نَحْوَ قَرْيَةٍ أُخْرى تُسَمّى باذْرْلي في مُحاوَلَةٍ لِتَقَصّي أَخْبارِ أَخيهِ . وَفي طَريقِهِ إِلى تِلْكَ القَرْيَةِ، لَمَحَ مِنْ بَعيدٍ شَبَحَ فارِسٍ قادِماً نَحْوَهُ ، فازْدادَتْ دَقّاتُ قَلْبِهِ . أ يَكونُ الجَوادُ القادِمُ هُوَ جَوادَهُ ؟ وَحَثَّ غودْفري حِصانَهُ حَتّى يَلْتَقِيَ بِهِ ، فَلَمّا قَرُبَ مِنْهُ وَتَبَيَّنَهُ بِوُضوحٍ إذا بِهِ يَرى أَنَّهُ لَيْسَ جَوادَهُ المَحْبوبَ ، وَأَنَّ الرّاكِبَ لَيْسَ أَخاهُ ، بَلْ كانَ السَّيِّدَ برايْس الَّذي كانَ يُريدُ أَنْ يَشْتَرِيَ الجَوادَ ، وَتَوَقَّفَ غودْفري لِلتَّحَدُّثِ إِلى السَّيِّدِ برايْس .

قالَ برايْس مُتَهَكِّماً : « حَسَنٌ يا سَيِّدُ غودْفري ، إِنَّ أَخاكَ هَذا شابٌّ مَحْظوظٌ حَقًّا ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

وَفَزِعَ غودْفري مِمّا قَدْ يَتْلو تِلْكَ السُّخْرِيَةَ مِنْ أَنْباءٍ سَيِّئَةٍ ؛ فَصاحَ عَلى الفَوْرِ : « ماذا فَعَلَ بِجَوادي ؟ أَخْبِرْني بِسُرْعَةٍ !»

قالَ السَّيِّدُ برايْس : « آهٍ ، لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ جَوادُكَ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ ادَّعى أَنَّكَ بِعْتَهُ لَهُ !»

صاحَ غودْفري ، وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ مِنَ الغَضَبِ : « بِرَبِّكَ خَبِّرْني، هَلْ أَوْقَعَهُ وَكَسَرَ ساقَهُ ؟»

« بَلْ أسْوَأ مِنْ ذَلِكَ ، يا سَيِّدُ غودْفري . لَقَدِ اتَّفَقْتُ مَعَهُ عَلى شِراءِ الجَوادِ بِمِئَةٍ وَعِشْرينَ جُنَيْهًا ، وَهُوَ ثَمَنٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ أكُنْ لأدْفَعَهُ لَوْلا أنَّني أعْشَقُ هذا الجَوادَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ! »

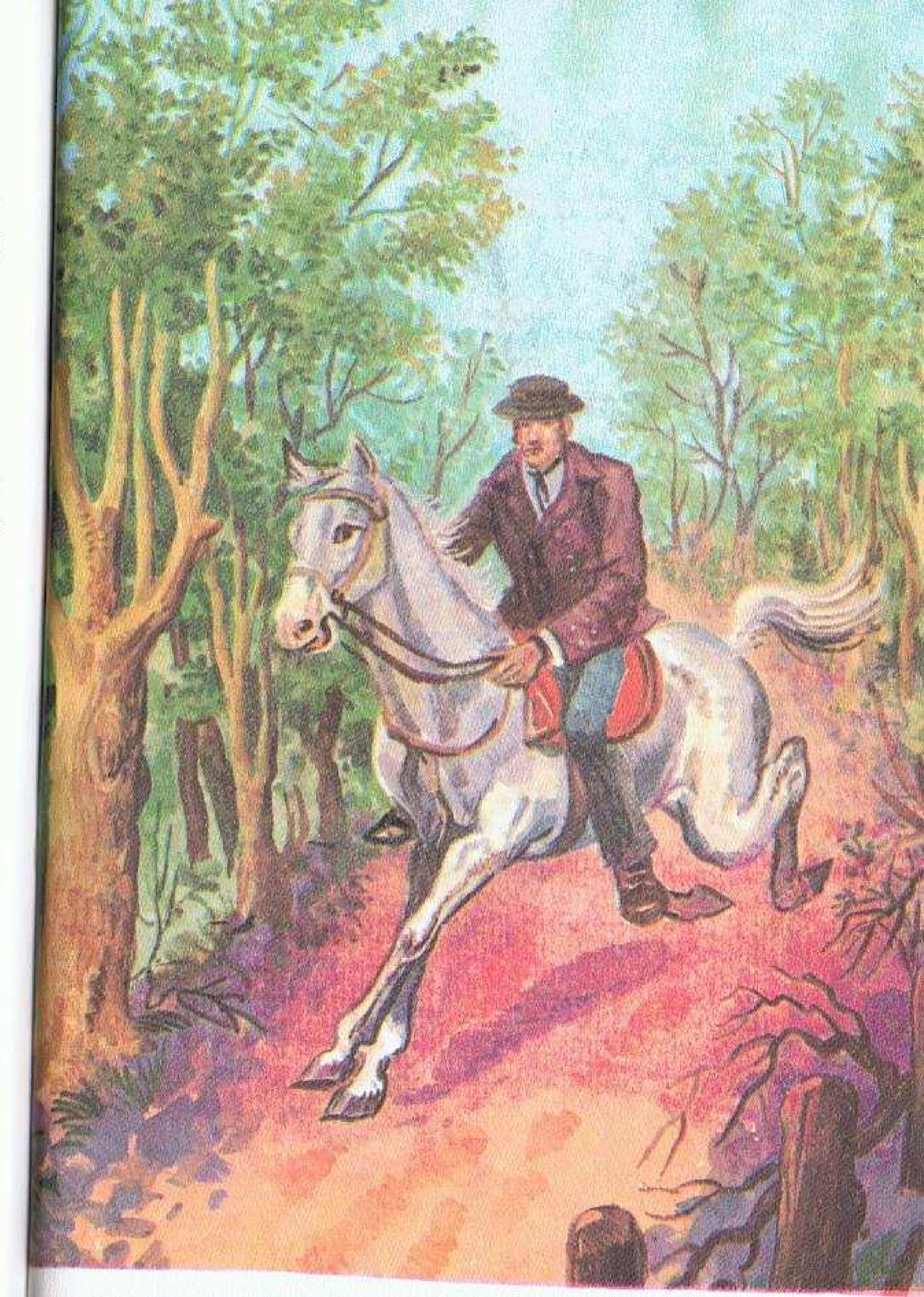
« ماذا ؟! هَلْ ماتَ ؟! »

« نَعَمْ ، لِلأسَفِ الشَّديدِ ! لَقَدْ قَتَلَهُ أخوكَ الأحْمَقُ وَهُوَ يَجْتازُ بِهِ في رُعونَةٍ سِياجًا عالِيًا ذا أسْنانٍ مُدَبَّبَةٍ ، يَقَعُ في أعْلى التَّلِّ . وَعِنْدَما تَجَمَّعَ النَّاسُ حَوْلَهُ ، وَجَدوا أنَّهُ قَدْ ماتَ . أ لَمْ يَعُدْ أخوكَ إلى المَنْزِلِ حَتَّى الآنَ ؟ »

أجابَ غودْفري في أسًى غاضِبٍ : « نَعَمْ . وَمِنَ الخَيْرِ لَهُ ألا يَعودَ أبَدًا ! يا لِي مِنْ رَجُلٍ أحْمَقَ ! لَقَدْ كانَ عَلَيَّ أنْ أدْرِكَ أنَّ هَذِهِ سَوْفَ تَكونُ نِهايَةَ الأمْرِ ! »

سَألَهُ السَّيِّدُ برايْس : « وَلَكِنْ أيْنَ تُراهُ قَدْ ذَهَبَ ؟ إنَّ أحَدًا لَمْ يَرَهُ في باذَرْلي بَعْدَ ذَلِكَ . لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ قَدْ أصيبَ عِنْدَما سَقَطَ بِهِ الجَوادُ ، لأنَّهُ سارَ مَسافَةً طَويلَةً عَقِبَ الحادِثِ . »

قالَ غودْفري بِمَرارَةٍ شَديدَةٍ : « لا شَيْءَ يُصيبُهُ بِأذًى ! بَلْ إنَّهُ يُصيبُ الآخَرينَ بالأذى ! »



« أعْتَقِدُ أنَّ السَّيِّدَ دَنْسي لا يَرْغَبُ في الظُّهورِ قَبْلَ أنْ يَنْتَشِرَ نَبأ مَصْرَعِ الجَوادِ ، ولَعَلَّهُ قَدْ نَزَلَ بِفُنْدُقِ « هويت بريدج » ، فَأنا أعْلَمُ أنَّهُ مِنَ المُغْرَمينَ بِهذا الفُنْدُقِ . »

وَاسْتَدارَ غودْفري بِحِصانِهِ قائِلاً في ذُهولٍ : « رُبَّما . وَالآنَ سَأعودُ أنا إلى المَنْزِلِ . إلى اللِّقاءِ ! »

وَسارَ غودْفري بِجَوادِهِ في اتِّجاهِ البَيْتِ . وَقَضى طَوالَ الطَّريقِ يُفَكِّرُ في المَأزِقِ الحَرِجِ الَّذي وَقَعَ فيهِ ، وَوَجَدَ في نِهايَةِ الأمْرِ أنَّهُ لا مَفَرَّ مِنَ الاعْتِرافِ بِكُلِّ شَيْءٍ لِأبيهِ .

وَأوى إلى فِراشِهِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَهُوَ عاقِدُ العَزْمَ عَلى الإفْضاءِ لِوالِدِهِ بِحَقائِقِ الأمْرِ في الصَّباحِ .

وَلكِنْ ما إنْ طَلَعَ الفَجْرُ حَتّى لاحَتْ لَهُ أشْباحُ الفَضيحَةِ وَالعارِ، وَخَشِيَ حِرْمانَهُ مِنْ نانْسي ، الَّذي قَدْ يَجُرُّهُ إلَيْهِ الاعْتِرافُ الكامِلُ بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ فَعَدَلَ عَنْ تَصْميمِهِ السّابِقِ ، وَآثَرَ الاحْتِفاظَ بِسِرِّ زَواجِهِ عَلى أنْ يُخْبِرَ والِدَهُ بِالنُّقودِ الَّتي أخَذَها دَنْسي مِنْهُ ، مُحاوِلاً ما أمْكَنَ التَّخْفيفَ مِنْ غَضَبِ الأبِ عَلَيْهِ . وَتَمَنّى غودْفري أنْ يَبْقى ذَلِكَ الأخُ المُسْتَهْتِرُ بِضْعَةَ أيّام أخَر خارِجَ البَيْتِ حَتّى يَتِمَّ الأمْرُ وَفْقَ ما يَرومُ .

الفَصْلُ السّابِعُ
اعْتِرافُ غودْفري

نَهَضَ غودْفري مُبَكِّرًا في الصَّباحِ ، وَتَناوَلَ إفْطارَهُ ، ثُمَّ أسْرَعَ إلى حُجْرَةِ الجُلوسِ يَنْتَظِرُ قُدومَ أبيهِ .

وَدَلَفَ الشَّريفُ إلى الحُجْرَةِ ، وَكانَ رَجُلاً طَويلاً مُمْتَلِئَ الجِسْمِ، ذا مَهابَةٍ وَجَلالٍ ، وَتَطَلَّعَ إلى ابْنِهِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ دونَ تَحِيَّةٍ : « أ لَمْ تَتَناوَلْ إفْطارَكَ بَعْدُ ؟ »

أجابَ غودْفري : « لَقَدْ تَناوَلْتُهُ ، يا سَيِّدي ، غَيْرَ أنَّني بَقيتُ بِالمَنْزِلِ لِأتَحَدَّثَ إلَيْكَ . لَقَدْ أصابَني سوءُ الحَظِّ في جَوادي أوَّلَ أمْسِ ! »

تَساءَلَ الشَّريفُ في دَهْشَةٍ قائِلاً : « ماذا ؟! هَلْ كُسِرَتْ ساقُهُ؟ كُنْتُ أظُنُّ أنَّكَ تُجيدُ رُكوبَ الخَيْلِ عَلى الأقَلِّ ! إنَّني لَمْ أقَعْ



بِالحِصانِ مَرَّةً واحِدَةً في حَياتي ، وَلَوْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ لَما اشْترى لي والِدي حِصاناً آخَرَ . وَالآنَ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّني في ضائِقَةٍ مالِيَّةٍ ، وَأَنَّهُ عَلى ذَلِكَ الرَّجُلِ المَدْعُوِّ فولْر أَنْ يَدْفَعَ إيجارَ الأَرْضِ المُتَأَخِّرَ لَدَيْهِ . عَلَيْكَ إذاً بِهذا الرَّجُلِ ، فَإِنَّني لَنْ أَنْتَظِرَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . »

وَتَمَلَّكَتِ الحَيْرَةُ وَالخَوْفُ غودْفري مِنْ ذَلِكَ الاسْتِهْلالِ السَّيِّئِ لِحَديثِ والِدِهِ ، بَيْدَ أَنَّهُ اسْتَجْمَعَ أَطْرافَ شَجاعَتِهِ وَقالَ : « إِنَّ الأَمْرَ أَسْوَأُ مِنْ كَسْرِ السّاقِ ، يا والِدي ؛ فَلَقَدْ لَقِيَ الجَوادُ مَصْرَعَهُ . عَلى أَنَّني لَسْتُ المَلومَ فيما حَدَثَ ؛ كَما أَنَّني لا أَطْمَحُ إلى شِراءِ جَوادٍ

آخَرَ . لَقَدِ اقْتَرَضَ مِنِّي دَنْسي قيمَةَ الإيجارِ الَّتي سَدَّدَها فولْر بِالفِعْلِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ المَبْلَغَ ، وَلَقَدْ سَلَّمْتُهُ الجَوادَ النّادِرَ لِيَبيعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَتَلَهُ بِسَبَبِ حَماقَتِهِ وَتَهَوُّرِهِ في الرُّكوبِ . وَلَوْلا هذِهِ الحادِثَةُ المُؤْسِفَةُ لَكُنْتُ قَدْ دَفَعْتُ لَكَ مِئَةَ الجُنَيْهِ الآنَ . »

وَأَلْقى الشَّريفُ الشَّوْكَةَ وَالسِّكّينَ عَلى المائِدَةِ ، وَتَطَلَّعَ إِلى ابْنِهِ في دَهْشَةٍ شَديدَةٍ . عِنْدَئِذٍ بادَرَهُ غودْفري بِالقَوْلِ : « أَجَلْ يا سَيِّدي ، لَقَدْ دَفَعَ لِي فولْر المَبْلَغَ عِنْدَما قَصَدْتُ حَقْلَهُ يَوْماً خِلالَ الشَّهْرِ الماضي ، وَلكِنَّني أَعْطَيْتُ المَبْلَغَ لأَخي الَّذي كانَ قَدْ أَلَحَّ في طَلَبِهِ ، وَكُنْتُ مُوقِناً مِنْ أَنَّني سَوْفَ أَسْتَطيعُ تَسْديدَهُ لَكَ في الوَقْتِ المُناسِبِ . »

وَاسْتَشاطَ الشَّريفُ غَضَباً ، وَصاحَ قائِلاً : « هَلْ أَعْطَيْتَ دَنْسي النُّقودَ ؟ مُنْذُ مَتى تُصادِقُ دَنْسي ، وَتُعاوِنُهُ عَلى سَرِقَةِ نُقودي ؟ لِماذا أَعْطَيْتَهُ النُّقودَ يا غودْفري ؟ هَيَّا انْطِقْ ، وَلا تَقُلْ كَذِباً . »

أَجابَ غودْفري : « لَنْ أَقولَ سِوى الحَقِّ الصُّراحِ . لَمْ أُنْفِقْ بِنْساً واحِداً مِنْ تِلْكَ النُّقودِ عَلى نَفْسي ، يا سَيِّدي . لَقَدْ طَلَبَها مِنِّي دَنْسي بِإِلْحاحٍ . أَعْتَرِفُ أَنَّني كُنْتُ مُخْطِئاً في تَسْليمِها إِلَيْهِ ، وَلكِنَّني كُنْتُ أَعْتَزِمُ رَدَّها إِلَيْكَ في أَقْرَبِ فُرْصَةٍ . »

صاحَ الشَّريفُ : « أينَ دَنسي الآنَ ؟ اِذْهَبْ وَأَحْضِرْهُ لأرى ماذا فَعَلَ بِنُقودي . سَوْفَ أَجْعَلُهُ يَنْدَمُ على ذَلِكَ ، سَوفَ أَطْرُدُهُ مِنَ المَنْزِلِ ، كَما قُلْتُ مِراراً مِنْ قَبْلُ . »

« إنَّهُ لَمْ يَعُدْ بَعْدُ ، يا سَيِّدي . »

صاحَ الشَّريفُ : « ماذا ؟ هَلْ كُسِرَ عُنُقُهُ هُوَ أَيْضاً ؟ »

« لا ، لَقَدِ ابْتَعَدَ عَنْ مَكانِ الحادِثِ ، وَلَمْ يَرَهُ أحَدٌ مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ . »

« وَلَكِنْ أَجِبْني عَلى الفَوْرِ ، لأيِّ غَرَضٍ أعْطَيْتَهُ النُّقودَ ؟ »

لَمْ يَكُنْ غودْفري يُحِبُّ الكَذِبَ ، فَقالَ : « لَسْتُ أدْري ، يا سَيِّدي . »

« لَسْتَ تَدْري ؟! سَأقولُ لَكَ أنا السَّبَبَ يا غودْفري ؛ لا بُدَّ أنَّكَ قَدِ ارْتَكَبْتَ خَطأً ما ، وَأَرَدْتَ أنْ تَرْشُوَ دانسْتان لِيَتَسَتَّرَ عَلَيْكَ . »

وَاضْطَرَبَ غودْفري اضْطِراباً شَديداً لِصِدْقِ حَدْسِ والِدِهِ ، وَلَكِنَّهُ حاوَلَ أنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ وَيَبْدُوَ مُتَماسِكاً رابِطَ الجَأْشِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أنْ قالَ في هُدوءٍ مُصْطَنَعٍ : « لا يا سَيِّدي . إنَّ الأمْرَ لا يَعْدو تِلْكَ

الصَّغائِرَ التَّافِهَةَ الَّتي تَنْتَمي إلى رُعونَةِ الشَّبابِ وَطَيْشِهِمْ ! »

صاحَ الشَّريفُ غاضِباً : « أيُّ صَغائِرَ تِلْكَ الَّتي تَتَحَدَّثُ عَنْها ؟ إنَّكَ لَمْ تَعُدِ الآنَ شابّاً صَغيراً طائِشاً ، وَلَسْتُ مُسْتَعِداً لأنْ أتَكَفَّلَ بِنَفَقاتِ صَغائِرِكَ . عَلَيْكَ أنْ تُغَيِّرَ أُسْلوبَ حَياتِكَ ؛ فَأَنْتَ الآنَ مُقْدِمٌ عَلى الزَّواجِ . إنِّي أذْكُرُ الآنَ جَدِّي الَّذي كانَ يَعيشُ في ظُروفٍ أسْوَأَ مِمَّا نَحْنُ فيهِ الآنَ بِكَثيرٍ ، وَلَكِنَّ بَيْتَهُ كانَ مَليئاً بِالخَيْرِ . لِمَ لا أسْتَطيعُ أنا التَّمَتُّعَ بِمِثْلِ ما كانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ ؟ لأنَّ ابْنَيَّ لَيْسا إلا عِبْئاً يُثْقِلُ ظَهْري ، وَأَنْتَ لا تُعينُني فيما أنْهَضُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ . »

أجابَ غودْفري في هُدوءٍ : « لَقَدْ عَرَضْتُ عَلَيْكَ مَعونَتي مِراراً يا سَيِّدي ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ تَرْفُضُ وَتَقولُ إنَّ مَكانَكَ لَنْ يَسُدَّهُ أحَدٌ . »

قالَ الشَّريفُ : « لَسْتُ أذْكُرُ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي أذْكُرُ الآنَ شَيْئاً واحِداً ، هُوَ أنَّكَ كُنْتَ تَسْعى لأنْ تَتَزَوَّجَ نانْسي لاميتر . لَقَدْ تأكَّدَ لي أنَّكَ تُحِبُّها ، وَأنا لا أُعارِضُ شَخْصِيّاً في هَذا الزَّواجِ ، فَهَلْ رَفَضَتِ الفَتاةُ الزَّواجَ بِكَ ؟ »

أجابَ غودْفري في خَجَلٍ وَاضْطِرابٍ : « لا ، وَأَظُنُّ أنَّها سَوْفَ تَقْبَلُ الزَّواجَ بي . »

« تظُنُّ ؟ وَلماذا لا توجدُ لَديْكَ الشّجاعَةُ لأَنْ تَسْأَلَها ؟ أَ تُريدُ أنْ تَتَزَوَّجَها أمْ لا ؟»

« لَسْتُ أطْمَحُ إلى الزَّواج بِامْرَأَةٍ سِواها .»

« إذاً دَعْني أَطْلُبْ يَدَها نِيابَةً عَنْكَ . عَلى أَيَّةِ حالٍ لا أظُنُّ أنَّ آل لاميتر يرْفُضونَ مُصاهَرَتي .»

قالَ غودْفري ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ : « أَرْجوكَ أَلا تَفْعَلَ هَذا في الوَقْتِ الحاضِرِ عَلى الأَقَلِّ . أَعْطِني الفُرْصَةَ لِتَدَبُّرِ الأَمْرِ .»

قالَ الشَّريفُ : « حَسَنٌ ، هَيَّا احْزِمْ أَمْرَكَ وَتَقَدَّمْ لِطَلَبِ يَدِها ، ثُمَّ حاوِلْ أنْ تَحْيا مِنَ الآنَ حَياةً أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ الَّتي تَحْياها . هَذا ما يَجِبُ أنْ يَفْعَلَهُ الرَّجُلُ حينَ يُفَكِّرُ في الزَّواج . وَالآنَ بعْ جَواد دَنْسي، وَسَلِّمْني ثَمَنَهُ عَلى الفَوْرِ ، فَأَنا لَنْ أَسْمَحَ لَهُ بَعْدَ الآنَ بِالاحْتِفاظِ بِجَوادٍ خاصٍّ عَلى حِسابي . وَإذا كُنْتَ تَعْرِفُ مَكانَهُ ، فَأَخْبِرْهُ بِأَلا يَدْخُلَ هَذا المَنْزِلَ بَعْدَ اليَوْمِ ، فَهُوَ يَسْتَطيعُ الآنَ أنْ يَعولَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ .»

وَغادَرَ غودْفري الحُجْرَةَ وَكَأَنَّ حِمْلاً ثَقيلاً قَدْ أُزيحَ عَنْ كاهِلِهِ ، لَكِنَّهُ كانَ قَلِقاً مِنْ كَلامِ والِدِهِ بِخُصوصِ نانْسي لاميتر وَالتَّقَدُّم

لِخِطْبَتِها . عَلى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَفْعَلَ شَيْئاً – كَعادَتِهِ – سِوى أنْ يُسَلِّمَ بِالأَمْرِ الواقِعِ وَيَأْمُلَ في هُبوطِ مُنْقِذٍ مَجْهولٍ يُخَلِّصُهُ مِنْ وَرْطَتِهِ .

الفصلُ الثّامنُ

العيدُ في راڤيلو

أجْرِيَتْ تحرّياتٌ كَثيرَةٌ ، عَنِ البائعِ المُتجوِّلِ الّذي ظَنَّ بَعْضُ القَرَوِيِّينَ أنَّهُ صاحِبُ صُنْدوقِ الإشعالِ ، الّذي وُجِدَ بِقُرْبِ المَحْجَرِ الصَّغيرِ ، وَلكنَّها لَمْ تُسْفِرْ عَنْ شَيْءٍ . وَمَرَّتْ عِدَّةُ أسابيعَ ، وَقَلَّ اهْتِمامُ أهْلِ القَرْيَةِ بِما وَقَعَ لِسايْلاس مارْنَر ، كَما لَمْ يُثِرِ اخْتِفاءُ دانِسْتان كاس أيَّ دَهْشَةٍ ؛ إذْ كانَ قَدْ تَشاجَرَ مَعَ والِدِهِ مَرَّةً قَبْلَ ذَلِكَ ، وَاخْتَفى عَلى أَثَرِها سِتَّةَ أسابيعَ ، ثُمَّ عادَ إلى الظُّهورِ في البَيْتِ الأحْمَرِ . أمّا هَذِهِ المَرَّةَ ، فَقَدْ كانَ والِدُهُ مُصَمِّماً عَلى حِرْمانِهِ مِنْ دُخولِ المَنْزِلِ . وَهكَذا لَمْ يَتَحَدَّثْ أفْرادُ العائِلَةِ عَنْ غِيابِهِ ، كَما لَمْ يَقْرِنْ أحَدٌ بَيْنَ اخْتِفائِهِ وَسَرِقَةِ سايْلاس مارْنَر عَلى الرَّغْمِ مِنْ وُقوعِهِما في اليَوْمِ ذاتِهِ ، وَحَتّى غودْفري نَفْسُهُ لَمْ يَقْرِنْ بَيْنَ هاتَيْنِ الواقِعَتَيْنِ ؛ إذْ إنَّ ذِكْرَ سايْلاس لَمْ يَجْرِ في الحَديثِ بَيْنَ الأخَوَيْنِ

مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ – أيْ مُنْذُ أنْ كَفّا عَنْ مُحاوَلاتِ إغاظَتِهِ وَمُضايَقَتِهِ الّتي كانا يَقومانِ بِها في أيّامِ الصِّبا الباكِرِ .

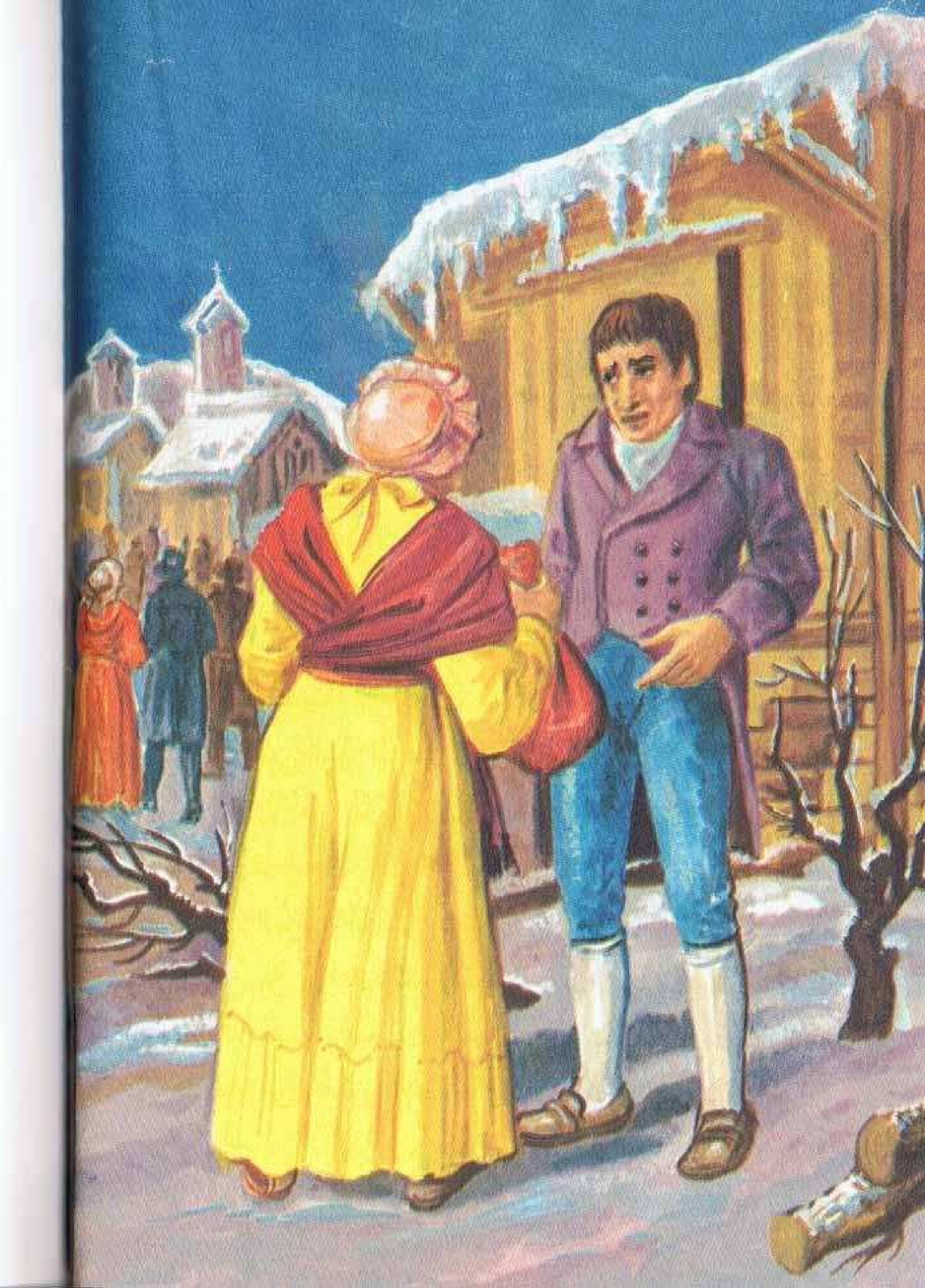
عَلى أنَّ سايْلاس المِسْكينَ ظَلَّ يُعاني بِشِدَّةٍ مِنْ خَسارَتِهِ الجَسيمَةِ ؛ فَقَدْ كانَ مُتَمَسِّكاً بِمالِهِ ، شَديدَ الحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَكانَ ذَلِكَ المالُ هُوَ الشَّيْءَ الوَحيدَ الّذي جَعَلَ لِحَياتِهِ هَدَفاً . وَكانَ يَتَطَلَّعُ بِشَوْقٍ إلى حُلولِ المَساءِ ، لِيَجْلِسَ إلى مِنْضَدَتِهِ ، وَيَنْثُرَ فَوْقَها قِطَعَ النُّقودِ الذَّهَبِيَّةَ وَالفِضِّيَّةَ ، وَيَشْرَعَ في عَدِّها وَصَفِّها . وَكانَتْ تِلْكَ هِيَ لَذَّتَهُ الوَحيدَةَ وَالكُبْرى في الحَياةِ ، وَلَقَدْ حُرِمَ مِنْها الآنَ ظُلْماً وَعُدْواناً !

غَيْرَ أنَّ المُصيبَةَ الّتي حَلَّتْ بِسايْلاس مارْنَر كانَتْ تَحْمِلُ في طَيّاتِها شَيْئاً مِنَ الخَيْرِ لَهُ ؛ إذْ فَتَحَتْ أمامَهُ عالَماً لَمْ يَكُنْ يَأْلَفُهُ مِنْ قَبْلُ . وَكانَ أهْلُ القَرْيَةِ يَظُنّونَ أنَّهُ أمْهَرُ وَأذْكى مِنْهُمْ ، وَكانُوا يَتَجَنَّبونَهُ لِهَذا السَّبَبِ ؛ مَخافَةَ أنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الأذى . وَلَقَدِ اكْتَشَفوا ، بَعْدَ حادِثِ السَّرِقَةِ ، أنَّهُ لَيْسَ ماهِراً وَلا ذَكِيّاً كَما كانُوا يَظُنّونَ ، وَأنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ حِراسَةِ أمْوالِهِ وَالمُحافَظَةِ عَلَيْها ؛ لِذَلِكَ بَدَأوا يُسْبِغونَ عَلَيْهِ ألْواناً شَتّى مِنَ العَطْفِ وَالحَنانِ . وَكانَ الأغْنِياءُ مِنْهُمْ يَبْعَثونَ إلَيْهِ بِالهَدايا مِنَ اللُّحومِ وَالأطْعِمَةِ الفاخِرَةِ ، إذْ كانَ العيدُ قَدِ اقْتَرَبَ ،

وَالبُيوتُ الغَنِيَّةُ ، لا تَفْتَأُ تَصْنَعُ أطْباقًا جَديدَةً مِنَ اللُّحوم وَالحَلْوى كُلَّ يَوْم . أمَّا القَوْمُ الفُقَراءُ ، فَكانُوا يَكْتَفونَ بِتَحِيَّةِ سايْلاس وَالتَّوَقُّفِ لِلْحَديثِ مَعَهُ كُلَّما رَأَوْهُ ، وَكَثيرًا ما كانُوا يَقْصِدونَ كُوخَهُ لِزِيارَتِهِ ، وَمُعايَنَةِ مَكانِ الحادِثِ ، وَعِنْدَئِذٍ كانُوا يُعَزُّونَهُ قائِلينَ : « حَسَنٌ يا سَيِّدُ مارْنَر ، لَسْتَ - عَلى أيَّةِ حالٍ - بِأسْوَأَ مِنْ غَيْرِكَ مِنَ الفُقَراءِ في كُلِّ مَكانٍ . »

فَتَحَ كُلُّ ذَلِكَ آفاقًا جَديدَةً بَهيجَةً ، مِنَ المَشاعِرِ الإنْسانِيَّةِ الرَّاقِيَةِ النَّبيلَةِ في حَياةِ سايْلاس مارْنَر ، لَمْ يَكُنْ يَتَذَوَّقُها مِنْ قَبْلُ ، وَكانَتْ في مُقَدِّمَةِ العاطِفينَ عَلَيْهِ سَيِّدَةٌ رَقيقَةٌ طَيِّبَةُ القَلْبِ ، تُدْعى السَّيِّدَةَ دُولي وِنْثروب . وَكانَتْ تَزورُهُ مَعَ ابْنِها آرون الَّذي يَبْلُغُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، حامِلَةً إلَيْهِ بَعْضَ الكَعْكِ وَالفَطائِرِ الَّتي كانَتْ تَصْنَعُها . وَكانَ سايْلاس يَبْتَهِجُ كَثيرًا لِزِيارَةِ تِلْكَ الصَّديقَةِ الحَنونِ ، الَّتي كانَ يُكِنُّ لَها قَدْرًا كَبيرًا مِنَ الوُدِّ وَالاحْتِرام .

وَقالَتْ لَهُ السَّيِّدَةُ وِنْثروب ، آخِرَ مَرَّةٍ زارَتْهُ فيها ، وَقَبْلَ أنْ تَنْصَرِفَ : « أسْتَوْدِعُكَ اللّهَ يا سَيِّدُ سايْلاس ، وَإذا شَعَرْتَ بِالوَهَنِ في أيِّ وَقْتٍ ، وَبِعَدَمِ القُدْرَةِ عَلى تَدْبيرِ شُئونِكَ ، فَاتَّصِلْ بي كَيْ أحْضُرَ لِمُساعَدَتِكَ . سَوْفَ أفْعَلُ ذَلِكَ بِكُلِّ سُرورٍ . »



وَوَدَّعَها سايْلاس عِنْدَ بابِ الكُوخ شاكِرًا لَها فَضْلَها وَمَشاعِرَها الكَرِيمَةَ . وَ عِنْدَما غادَرَتْ بَيْتَهُ المُتَواضِعَ ، عادَ إلى عَمَلِهِ في النَّسْج بِهِمَّةٍ وَنَشاطٍ .

وَبَقِيَ سايْلاس وَحِيدًا في يَوْمِ العِيدِ ، عَلى حِينٍ كانَ أَهْلُ القَرْيَةِ يَمْرَحونَ وَيَنْعَمونَ بِالأَكْلِ وَالشَّرابِ .

أَمَّا في حَفْلِ الشَّرِيفِ كاس العائِلِيَّةِ ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَذْكُرْ دانسْتان أَوْ يَأْسَفْ لِغِيابِهِ . وَكانَ الدُّكْتورُ كِمْبل ، طَبِيبُ القَرْيَةِ ، وَزَوْجَتُهُ ، شَقِيقَةُ الشَّرِيفِ كاس ، حاضِرَيْنِ ، وَكانَتْ زَوْجَةُ كِمْبل تَقومُ بِدَوْرِ السَّيِّدَةِ المُضِيفَةِ في البَيْتِ الأَحْمَرِ .

غَيْرَ أَنَّ أَضْخَمَ حَفَلاتِ العام كانَتْ تِلْكَ الَّتي تُقامُ لَيْلَةَ رَأْسِ السَّنَةِ في بُيوتِ البَلْدَةِ . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كانَ الأَقارِبُ وَالأَصْدِقاءُ يَجْتَمِعونَ في البُيوتِ لِلسَّمَرِ وَالرَّقْصِ ، وَكانَتِ الحَشِيّاتُ وَالوَسائِدُ تُفْرَشُ عَلى الأَرْضِ في كُلِّ بَيْتٍ ، لاِسْتيعابِ العَدَدِ الكَبِيرِ مِنَ النّاسِ بَعْدَ سَهْرَةٍ صاخِبَةٍ ، يَسْتَقْبِلونَ فيها الشُّعاعَ الأَوَّلَ مِنْ غُرَّةِ العامِ الجَدِيدِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . وَكانَ غودْفري كاس يَتَطَلَّعُ إلى حَفْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ تِلْكَ بِشَوْقٍ وَاهْتِمامٍ شَدِيدَيْنِ ؛ إِذْ كانَ يَطْمَحُ في الجُلوسِ إلى جِوارِ مَحْبوبَتِهِ الآنِسَةِ نانْسي لاميتر، وَإلى مُراقَصَتِها

أَطْوَلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، وَكانَ يَرْجو أَلا يَعودَ شَقِيقُهُ دَنْسي إلى المَنْزِلِ قَبْلَ حُلولِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الهامَّةِ الكَبِيرَةِ . وَكانَ يَتوقُ إلى تَقْدِيمِ هَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ لِنانْسي في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ النُّقودَ اللازِمَةَ لِذَلِكَ. وَأَفْرَطَ غودْفري في الشَّرابِ في العِيدِ ، مُتَخَيِّلاً بِذَلِكَ أَنَّهُ يَنْسى هُمومَهُ وَمَخاوِفَهُ المُتَّصِلَةَ بِلَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ القادِمَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّخَلُّصَ مِنْها قَطُّ !

الفصلُ التّاسعُ

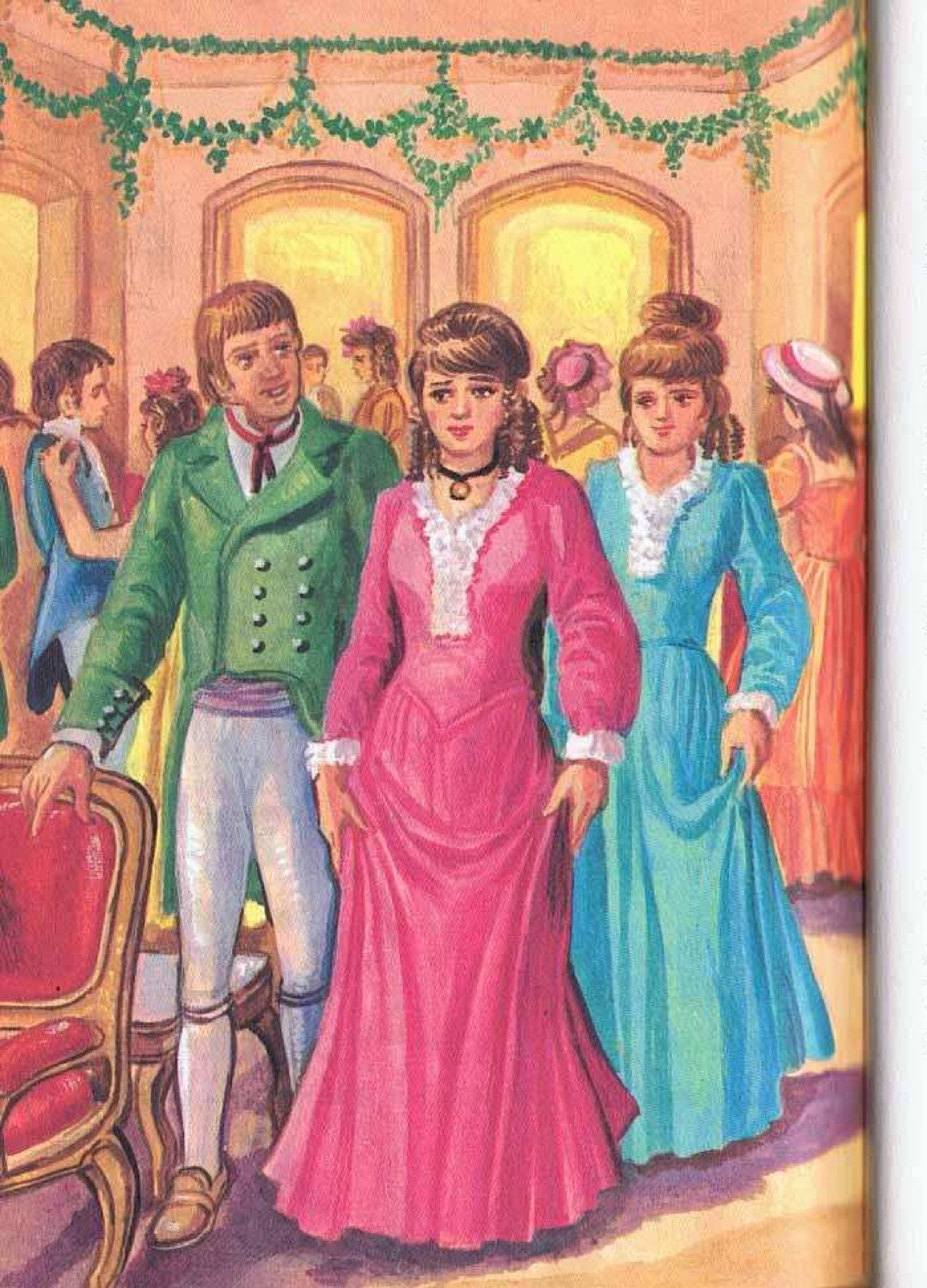
الحفْلُ في منْزلِ الشَّريفِ كاس

عِنْدَ ظُهْرِ آخرِ أيّامِ شَهْرِ دِيسمبر ، أيْ قَبْلَ حُلولِ مَوْعِدِ حَفْل رَأسِ السَّنَةِ بِعدَّةِ ساعاتٍ ، كانَتِ الآنِسَةُ نانْسي وَ والِدُها السَّيِّدُ لاميتر يَقْطَعانِ المَسافَةَ مِنْ مَنْزِلِهِما إلى البَيْتِ الأحْمَرِ في راڤيلو على ظَهْرِ حِصانٍ . كانَتِ الفَتاةُ تَجْلِسُ عَلى سَرْجٍ مُريحٍ خَلْفَ والِدِها الطَّويلِ القامَةِ ، وَقَدْ أحاطَتْ خَصْرَهُ بِذِراعَيْها ، وَأمْسكَتْ بِهِ جَيِّداً ، وَراحَتْ تَتطَلَّعُ طَوالَ الطَّريقِ إلى الحُفَرِ وَالبِرَكِ المُغَطّاةِ بِالثُّلوجِ . وكانَتْ نانْسي تَبْدو جَميلَةً رائِعَةً لِلغايَةِ في سُتْرَةِ الرُّكوبِ ، وَما إنْ رَآها غودْفري تَقْتَرِبُ حَتّى خَفقَ قَلْبُهُ ، وَتَقدَّمَ لِمُساعَدَتِها عَلى النُّزولِ عِنْدَ البابِ . غَيْرَ أنَّ نانْسي كانَتْ تَتمَنّى في تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَوْ أنَّ أخْتَها بريسيلا ، الّتي كانَتْ تَسيرُ وَراءَها مَعَ خادِمَتِها ، قَدْ سَبَقَتْها إلى الوُصولِ ، حَتّى يُشْغَلَ غودْفري بِإنْزالِها أوّلاً ، وَيَتْرُكَها هِيَ لِحالِ

سَبيلِها ؛ فَالْواقِعُ أنَّ نانْسي لَمْ تَكُنْ تَميلُ إلَيْهِ كَثيراً ، حَيْثُ كانَ يَبْدو لَها غامِضاً مُتَقَلِّبَ المِزاجِ . وَلَقَدْ أظْهَرَتْ لَهُ ذاتَ مَرَّةٍ عَدَمَ رَغْبَتِها في الزَّواجِ بِهِ ، غَيْرَ أنَّهُ ظَلَّ يُلاحِقُها بَعْدَ ذَلِكَ بِدَلائِلِ الوُدِّ وَالاهْتِمامِ ، وَلَيْتَهُ فَعَلَ ذَلِكَ بِصورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ، فَرُبَّما كانَتْ قَدْ تَأكَّدَتْ مِنْ صِدْقِ مَشاعِرِهِ فَمالَتْ إلَيْهِ . وَلَكِنَّهُ بَدا لَها شاذّاً غَريبَ الأطْوارِ ، فَقَدْ كانَ يَتَجاهَلُها لأسابيعَ طِوالٍ ، ثُمَّ يَعودُ فَجْأةً مُنْجَذِباً إلَيْها ، يُبْدي لَها آياتِ الحُبِّ وَالإعْجابِ ! ناهيكَ عَنْ سُمْعَتِهِ السَّيِّئَةِ ، وَما كانَ يَتَرامى إلَيْها مِنْ أحاديثِ النَّاسِ عَنْ حَياتِهِ الخاصَّةِ ، الأمْرُ الَّذي كانَ يُشَكِّكُها في حُبِّهِ وَإخْلاصِهِ .

وَمَرَّتْ كُلُّ تِلْكَ الأفْكارِ بِخاطِرِ نانْسي مِنْ لَحْظَةِ رُؤْيَتِها غودْفري مِنْ بَعيدٍ ، وَحَتّى وُصولِها إلى بابِ البَيْتِ الأحْمَرِ . وَخَرَجَ الشَّريفُ كاس لِتَحِيَّةِ والِدِها السَّيِّدِ لاميتر ، كَما انْبرى غودْفري لإنْزالِها بِسُرْعَةٍ عَنْ ظَهْرِ الجَوادِ ، لأنَّ المَطَرَ كانَ قَدْ عاوَدَ السُّقوطَ . وَهُرِعَ الجَميعُ إلى داخِلِ الدّارِ ، وَالْتَفُّوا حَوْلَ مائِدَةِ الشّاي ، ثُمَّ صَعِدُوا إلى غُرَفِ النَّوْمِ لِتَغْييرِ مَلابِسِهِمْ ، اِسْتِعْداداً لِحَفْلِ العَشاءِ وَالرَّقْصِ في المَساءِ .

وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدَةُ كِمْبل لاصْطِحابِ السَّيِّدِ لاميتر وَابْنَتَيْهِ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، حَيْثُ غُرْفَةُ النَّوْمِ المُسَمّاةُ بِالحُجْرَةِ الزَّرْقاءِ ، الّتي



كانَتْ حَقيبَةُ مَلابِسِهِمْ قَدْ سَبَقَتْهُمْ إلَيْها مَعَ أَحَدِ الخَدَمِ في الصَّباحِ . وَكانَ المَنْزِلُ غاصًّا بِالسَّيِّداتِ وَالفَتَياتِ اللائي يَرْتَدينَ مَلابِسَ السَّهْرَةِ ، وَكانَتْ هُناكَ سِتٌّ مِنْهُنَّ في الحُجْرَةِ الزَّرْقاءِ وَحْدَها .

على أنَّ ثَلاثًا مِنْهُنَّ غادَرْنَها عِنْدَ دُخولِ نانْسي إلَيْها ، وَلَمْ تَبْقَ فيها سِوى السَّيِّدَةِ أوسْغود ، عَمَّةِ نانْسي ، وَآنِسَتَيْنِ مِنَ الضُّيوفِ ، هُما ابْنَتا السَّيِّدِ غَن ، لِيُساعِدْنَ نانْسي في ارْتِداءِ مَلابِسِها . كانَتْ هاتانِ الآنِسَتانِ قَدْ قَدِمَتا مِنَ المَدينَةِ ، وَكانَتا مَشْغوفَتَيْنِ بِمُشاهَدَةِ نانْسي لاميتر ، الفَتاةِ الرِّيفِيَّةِ الجَميلَةِ ، وَمُلاحَظَةِ سُلوكِها بِعَيْنٍ ناقِدَةٍ؛ لكِنَّهُما لَمْ تَجِدا عَيْبًا في شَخْصِها أَوْ مَلابِسِها . وَما إنْ أَتَمَّتْ نانْسي لُبْسَها ، حَتّى تَمَلَّكَهُما الإعْجابُ الشَّديدُ بِجَمالِها الهادِئِ ، وَخِفَّةِ ظِلِّها الجَذّابَةِ ، وَثَوْبِها الحَريرِيِّ ، وَعِقْدِها الثَّمينِ ، وَقُرْطِها الجَميلِ .

وَأَخيرًا وَصَلَتْ بريسيلا لاميتر وَقَدِ احْمَرَّ وَجْهُها لِما بَذَلَتْهُ مِنْ جَهْدٍ أَثْناءَ الرِّحْلَةِ . وَساعَدَتْها أُخْتُها نانْسي على ارْتِداءِ ثَوْبٍ مِثْلِ ثَوْبِها تَمامًا ، غَيْرَ أَنَّ بريسيلا لَمْ تَبْدُ جَميلَةً رائِعَةً كَأُخْتِها ، وَمَعَ ذلِكَ لَمْ تَفْقِدْ مَرَحَها ، وَلَمْ تَكُنْ قَطُّ مَهْمومَةً . لَقَدْ كانَتْ دائِمَةَ القَوْلِ بِأَنَّها غَيْرُ راغِبَةٍ في الزَّواجِ .

وَعِنْدَما دَخلَتْ بريسيلا مَعَ أخْتِها الرَّدْهَةَ الفَسيحَةَ المُزْدَحِمَةَ بِالنّاسِ ، والمُزَيَّنَةِ بِالأغْصانِ الخَضْراءِ الجَميلَةِ ، تَقَدَّمَ غودْفري نَحْوَ الآنِسَةِ نانْسي لِيَصْحَبَها إلى مَقْعَدٍ بِجوارِهِ ، عَلى حينِ جَلَسَتْ بريسيلا بَيْنَ أبيها وَالشَّريفِ كاس . غَيْرَ أنَّ غودْفري كانَ يَتَصَنَّعُ عَدَمَ الاكْتِراثِ ، وَلا يُرْسِلُ بِالنَّظَراتِ الوالِهَةِ إلى نانْسي إلا لِماماً ، مَعَ أنَّ ذَلِكَ كانَ يَغيظُ والِدَهُ الشَّريفَ ، الَّذي كانَ يَتَعَمَّدُ إطْراءَ جَمالِها أمامَ والِدِها السَّيِّدِ لاميتر ، بِصَوْتٍ عالٍ يَسْمَعُهُ جَميعُ الحاضِرينَ . وَلَقَدْ سُرَّ لاميتر مِنْ إطْراءِ جَمالِ ابْنَتِهِ ، لكِنَّهُ كانَ لا يرْغَبُ في زَواجِها بِغودْفري ، وَلا في مُصاهَرَةِ عائِلَةِ الشَّريفِ كاس في ذَلِكَ الوَقْتِ بِالذّاتِ . وَكانَ يَرى أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ حُدوثِ تَغْييراتٍ كَثيرَةٍ قَبْلَ أنْ يُوافِقَ عَلى مِثْلِ هَذا الزَّواجِ .

وَ مالَ الشَّريفُ كاس بِمَقْعَدِهِ إلى الخَلْفِ ، وَأخَذَ يُقَهْقِهُ في مَرَحٍ ، وَهُوَ يَتَطَلَّعُ إلى غودْفري قائِلاً : « لا شَكَّ أنَّ ابْني غودْفري قَدْ حَجَزَ الآنِسَةَ نانْسي لِلرَّقْصَةِ الأولى هَذا المَساءَ ؛ أ لَيْسَ كَذَلِكَ يا غودْفري ؟»

وَشَعَرَ غودْفري بِالحَرَجِ مِنْ كَلِماتِ والِدِهِ ذاتِ المَغْزى ، وَأخَذَ يَتَخَوَّفُ مِنِ اسْتِمْرارِهِ في الكَلامِ عَلى هَذا النَّحْوِ ، غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَفْعَلَ شَيْئاً سِوى النَّظَرِ في حَسْرَةٍ إلى نانْسي قائِلاً : « لَمْ أطْلُبْ

إلَيْها ذَلِكَ بَعْدُ ، وَلَكِنَّني أرْجو أنْ تُوافِقَ ، إذا لَمْ يَكُنْ أحَدٌ سِوايَ قَدْ سَبَقَني إلَيْها .»

قالَتْ نانْسي بِهُدوءٍ وَرِقَّةٍ : « لا ، لَمْ أرْتَبِطْ بَعْدُ بِأحَدٍ .»

قالَ غودْفري : « إذاً أرْجو ألا يَكونَ لَدَيْكِ اعْتِراضٌ عَلى الرَّقْصِ مَعي .»

أجابَتْ بِفُتورٍ : « لَيْسَ ثَمَّةَ اعْتِراضٌ .»

وَالْتَفَّ الجَميعُ حَوْلَ المائِدَةِ . وَكانَ تَناوُلُ الطَّعامِ مَصْحوباً بِأحاديثَ كَثيرَةٍ وَمُداعَباتٍ وَإغاظاتٍ بَريئَةٍ ، لا تَنِمُّ عَنِ الحِقْدِ وَلاتَتَّسِمُ بِسوءِ القَصْدِ ، وَإنَّما تَعْمِدُ إلى إذْكاءِ روحِ المَرَحِ وَالفُكاهَةِ فَحَسْبُ . وَأخيراً انْطَلَقَتْ في المَكانِ نَغَماتٌ شَجِيَّةٌ مِنْ كَمانِ عازِفٍ عَجوزٍ . وَبَعْدَ أنِ انْتَهى العازِفُ العَجوزُ مِنْ عَزْفِهِ لِلجَماعَةِ ، قادَهُمْ إلى حُجْرَةِ الاسْتِقْبالِ البَيْضاءِ الكَبيرَةِ .

وَكانَتِ الأضْواءُ المُتَنَوِّعَةُ الخَلابَةُ تَسْطَعُ بَيْنَ الأغْصانِ الخَضْراءِ الجَميلَةِ ، وَتَنْعَكِسُ في المَرايا الكَثيرَةِ الَّتي تُغَطّي الحَوائِطَ . واصْطَحَبَ الرِّجالُ زَوْجاتِهِمْ ، وَالشُّبّانُ صَديقاتِهِمْ مِنَ الفَتَياتِ ، وَتَقَدَّمَ الجَميعُ إلى حَلْبَةِ الرَّقْصِ لِلقِيامِ بِالرَّقْصَةِ الأولى ، وَعَلى

رَأسِهِمُ الشَّرِيفُ مَعَ السَّيِّدَةِ ثورْب ، والسَّيِّدُ ثورب مَعَ السَّيِّدَةِ أوسْغود .
وَتقَدَّمَ غودْفري مَجْموعَةَ الشَّبابِ في صُحْبَةِ الآنِسَةِ نانْسي لاميتر .
أمَّا أَهْلُ القَرْيَةِ المُتَواضِعونَ ، وَهُمُ الَّذين كانَ يُسْمَحُ لَهُمْ بِمُشاهَدَةِ الرَّقْصِ وَسَماعِ المُوسيقى فَحَسْبُ ، فَقَدْ أَخَذوا يرْقُبونَ المَشْهَدَ بِلَذَّةٍ فائِقَةٍ ، كَما أَخَذوا يَنْتَقِدونَ مَلابِسَ الرّاقِصينَ والرّاقِصاتِ ، وَيُعَلِّقونَ عَلَيْهِمْ بِأَقْوالٍ مُخْتَلِفَةٍ .

قالَ أَحَدُ المُشاهِدينَ : « إنَّ العُمْدَةَ رَشيقٌ إلى حَدٍّ ما عَلى الرَّغْمِ مِنْ ثِقْلِ وَزْنِهِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَ لاميتر يَفْضُلُ الرِّجالَ جَميعاً بِقامَتِهِ المَديدَةِ . إنَّهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ كَجُنْدِيٍّ ، وَإنَّ ساقَيْهِ لَبَديعَتانِ ، كَما أَنَّهُ لَيْسَ مُتَرَهِّلاً مِثْلَ مُعْظَمِ الرِّجالِ الطّاعِنينَ في السِّنِّ . أمَّا السَّيِّدُ ثورب فَهُوَ نَشيطٌ إلَى حَدٍّ ما ، وَلَكِنَّ ساقَيْهِ لَيْسَتا عَلى ما يُرامُ ، فَهُما لَيْسَتا مُسْتَوِيَتَيْنِ تَماماً ! »

رَدَّ بِن وِنْثروب الَّذي كانَ مُمْسِكاً بِيَدِ ابْنِهِ آرون : « إذا ما تَحَدَّثْتَ عَنِ الرَّشاقَةِ وَالنَّشاطِ ، فَانْظُرْ إلى السَّيِّدَةِ أوسْغود الَّتي تَعْدو بِخُطُواتٍ سَريعَةٍ رَشيقَةٍ . إنَّها تَبْدو وَكَأَنَّها لَمْ تَتَقَدَّمْ في السِّنِّ يَوْماً واحِداً عَنِ العامِ الماضي ، فَهِيَ أَجْمَلُ امْرَأَةٍ هُنا . وَها هُوَ ذا ابْنُ الشَّريفِ يُراقِصُ الآنِسَةَ نانْسي ! يا لَها مِنْ فَتاةٍ رائِعَةٍ ! إنَّها أَجْمَلُ وَأَبْهى مَنْ رَأَتْ عَيْناي مِنَ الفَتَياتِ . إنَّها خَيْرُ مَنْ تَصْلُحُ لأَنْ تَكونَ

سَيِّدَةَ هَذا البَيْتِ ، وَأَغْلَبُ ظَنّي أَنَّها سَتَكونُ كَذَلِكَ عَمّا قَريبٍ ؛ فَهِيَ خَيْرُ مَنْ تَصْلُحُ لأَنْ تَكونَ زَوْجَةً لِلسَّيِّدِ غودْفري . »

وَتَدَخَّلَ أَحَدُ الرِّجالِ في الحَديثِ قائِلاً : « أرى أَنَّ السَّيِّدَ غودْفري لَيْسَ عاقِلاً ، وَإلا فَلِماذا يَرْضى بِأَنْ يَتَحَكَّمَ فيهِ أَخوهُ المُسْتَهْتِرُ ، الَّذي قَتَلَ جَوادَهُ الرّائِعَ أَخيراً ثُمَّ اخْتَفى ! وَقَدْ لاحَظْتُ أَنَّهُ كانَ مُغْرَماً بِنانْسي مُلِحّاً في تَعَقُّبِها ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنْ تَلاشى فَجْأَةً ، وَفَتَرَتْ مَشاعِرُهُ نَحْوَها ، أَ لَيْسَ هَذا رَجُلاً شاذَّ الفِكْرِ وَالطِّباعِ ؟! »

أَجابَ بِن وِنْثروب : « مِنَ الجائِزِ أَنَّ الآنِسَةَ نانْسي لَمْ تُبادِلْهُ المَشاعِرَ نَفْسَها ، عَلى أَنَّني أَظُنُّ أَنَّها بَدَأَتْ تَميلُ إلَيْهِ ، فَإنَّهُ يَبْدو سَعيداً هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، كَما أَنَّهُ قَدِ اصْطَحَبَها بَعيداً ، لِيَجْلِسا مُنْفَرِدَيْنِ . »

كانَتْ نانْسي ، في الواقِعِ ، قَدِ انْتَحَتْ رُكْناً قَصِيّاً لإصْلاحِ طَرَفِ ثَوْبِها الَّذي وَطِئَهُ الشَّريفُ كاس ، أَثْناءَ الرَّقْصِ فَقَطَعَهُ . أمَّا غودْفري فَقَدِ انْتَهَزَ تِلْكَ الفُرْصَةَ ؛ لِيَأْخُذَ مَحْبوبَتَهُ بَعيداً إلى حُجْرَةِ جُلوسٍ صَغيرَةٍ ، صُفَّتْ فيها المَناضِدُ الَّتي أُعِدَّتْ لِلَعِبِ الوَرَقِ .

وَما إنْ جَلَسَتْ نانْسي في تِلْكَ الحُجْرَةِ ، حَتّى بادَرَتْ غودْفري قائِلَةً : « أَشْكُرُكَ يا سَيِّدي ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أُكَلِّفَكَ مَشَقَّةً أُخْرى .

يُؤْسِفُني أنَّكَ قَدْ صادَفْتَ اللَّيْلَةَ شَريكَةً سَيِّئَةَ الحَظِّ في الرَّقْصِ !»

رَدَّ غودْفري مُصْطَنِعًا الغَضَبَ : « تَعْنينَ أنَّكِ آسِفَةٌ لأنَّكِ رَقَصْتِ مَعي ؟»

« لَمْ أعْنِ ذَلِكَ يا سَيِّدي ، وَلَكِنْ عِنْدَما يَنْعَمُ أحَدُ الرِّجالِ بِمُتَعٍ وَمَسَرَّاتٍ كَثيرَةٍ ، فَإنَّ رَقْصَةً واحِدَةً لاتَهُمُّهُ .»

« أنْتِ تَعْرِفينَ أنَّ هَذا لَيْسَ صَحيحًا ، وَأنَّ رَقْصَةً واحِدَةً مَعَكِ تَلَذُّ لي أكْثَرَ مِنْ جَميعِ مُتَعِ الأرْضِ .»

وَدَهِشَتْ نانْسي لِذَلِكَ القَوْلِ ، فَلَقَدْ كانَتِ المَرَّةَ الأولى الَّتي يُعْرِبُ فيها غودْفري عَنْ مَشاعِرِهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الصَّراحَةِ ، وَلَكِنَّها أخْفَتْ دَهْشَتَها وَقالَتْ بِلَهْجَةٍ جِدِّيَّةٍ : « الواقِعُ أنَّني لا أعْرِفُ هَذا يا سَيِّدُ غودْفري ، كَما أنَّ لَدَيَّ مِنَ الأسْبابِ ما يَجْعَلُني أفَكِّرُ تَفْكيرًا مُخْتَلِفًا ، وَحَتّى إنْ كانَ زَعْمُكَ صادِقًا ، فَإنَّهُ لا يَهُمُّني التَّأكُّدُ مِنْهُ .»

« أ لَنْ تَغْفِري لي إذًا يا نانْسي ، حَتّى وَلَوْ تَغَيَّرْتُ وَأقْلَعْتُ عَمّا تَكْرَهينَهُ مِنْ تَصَرُّفاتي ؟»

تَطَلَّعَتْ إلَيْهِ قائِلَةً : « لا شَكَّ أنَّني أسَرُّ لِرُؤْيَةِ كُلِّ تَغْييرٍ طَيِّبٍ

يَحْدُثُ لأيِّ شَخْصٍ ، غَيْرَ أنَّني أفَضِّلُ الشَّخْصَ الَّذي لا يَحْتاجُ إلى تَغْييرٍ .»

أجابَ غودْفري عَلى الفَوْرِ : « أنْتِ قاسِيَةُ القَلْبِ جِدًّا يا نانْسي ! كُنْتُ أظُنُّ أنَّكِ سَوْفَ تُشَجِّعينَني عَلى أنْ أكونَ رَجُلاً أفْضَلَ ، غَيْرَ أنَّكِ مُتَحَجِّرَةُ الشُّعورِ ، كَما أنَّ حَظّي تَعِسٌ لِلغايَةِ !»

كادَتْ نانْسي تَغْضَبُ لِذَلِكَ القَوْلِ ، وَلَكِنَّ بريسيلا جاءَتْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهِيَ تُنادي ضاحِكَةً : « هَيَّا تَعالَيِ الآنَ يا طِفْلَتي العَزيزَة ، وَدَعيني ألْقي نَظْرَةً عَلى ثَوْبِكِ .»

قالَ غودْفري لبريسيلا : « أ يَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أذْهَبَ الآنَ ؟»

أجابَتْ نانْسي وَهِيَ تَنْظُرُ إلى ذَيْلِ ثَوْبِها : « ذَلِكَ أمْرٌ مَتْروكٌ لَكَ .»

قالَ غودْفري في إصْرارٍ : « إذًا فَأنا أفَضِّلُ البَقاءَ .»

قالَ غودْفري ذَلِكَ لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُطيقُ مُفارَقَةَ الفَتاةِ ، وَعَزَمَ عَلى أنْ يَنْعَمَ بِالبَقاءِ إلى جِوارِها أطْوَلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، عَلى الرَّغْمِ مِمّا أبْدَتْهُ مِنْ مَشاعِرَ فاتِرَةٍ نَحْوَهُ .

الفَصْلُ العاشِرُ

زائِرَةٌ غَريبَةٌ لِكُوخِ سايْلاس

بَيْنَما كانَ غودْفري يَتَناسى مَتاعِبَهُ بِالقُرْبِ مِنْ نانْسي ، كانَتْ زَوْجَتُهُ مُولي تَسيرُ بِخُطًى قَلِقَةٍ بَطيئَةٍ على الطَّريقِ المُغَطّى بِالثَّلْجِ ، مُتَّجِهَةً إلى راڤيلو حامِلَةً مَعَها طِفْلَتَها . كانَتْ رِحْلَتُها تِلْكَ إلى القَرْيَةِ في لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ انْتِقاماً مِنْ غودْفري ، دَبَّرَتْهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَها، في لَحْظَةِ غَضَبٍ ، بِأَنَّهُ يُفَضِّلُ المَوْتَ على أَنْ يُعْلِنَ لِلنّاسِ أَنَّها زَوْجَتُهُ . كانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ حَفْلاً كَبيراً سَيُقامُ لِهَذِهِ المُناسَبَةِ في مَنْزِلِ الشَّريفِ كاس ، وَأَنَّ زَوْجَها سَوْفَ يَمْرَحُ وَيَصْخَبُ في هذا الحَفْلِ ، غَيْرَ مُبالٍ بِها أَوْ مُفَكِّرٍ فيها . وَلَقَدْ صَمَّمَتْ على الذَّهابِ إلى البَيْتِ الأَحْمَرِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الحافِلَةِ السَّعيدَةِ لإِفْسادِ سُرورِهِ وَمُتْعَتِهِ .

كانَتْ عازِمَةً على أَنْ تَدْخُلَ البَيْتَ بِمَلابِسِها القَذِرَةِ المُمَزَّقَةِ ، حامِلَةً على ذِراعَيْها ابْنَةَ غودْفري الَّتي وَرِثَتْ عَنْ أَبيها لَوْنَ شَعْرِهِ

وَعَيْنَيْهِ ، لِتُقَدِّمَ نَفْسَها لِلشَّريفِ على أَنَّها زَوْجَةُ ابْنِهِ الأَكْبَرِ . كانَتْ مُولي تَعْرِفُ تَماماً أَنَّ إِهْمالَ زَوْجِها لَها لَمْ يَكُنْ سَبَبَ تَعاسَتِها ، وَلكِنَّهُ الأَفْيُونُ اللَّعينُ الَّذي اسْتَسْلَمَتْ لِعُبودِيَّتِهِ ، بَيْدَ أَنَّها تَناسَتْ تِلْكَ الحَقيقَةَ في حِقْدِها وَغَضَبِها على غودْفري . لَقَدْ كانَ زَوْجُها شابًّا غَنِيًّا وَ وارِثاً مُتَوَقَّعاً لأَبيهِ الثَّرِيِّ ، وَكانَتْ تَطْمَحُ إلى أَنْ تَكونَ ثَرِيَّةً أَيْضاً إذا ما اعْتَرَفَ الشَّريفُ بِزَواجِها بِابْنِهِ .

بَدَأَتْ مُولي رِحْلَتَها مُبَكِّراً ، وَكانَتْ تَسيرُ بِبُطْءٍ بِسَبَبِ تَساقُطِ البَرْدِ وَخَوْفِها مِنَ الظَّلامِ الكَثيفِ الَّذي يَلُفُّ الطَّريقَ . وَدَقَّتِ السّاعَةُ السّابِعَةَ مَساءً حينَما اقْتَرَبَتْ مِنْ راڤيلو ، لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ بِالتَّحْديدِ المَسافَةَ الَّتي تَفْصِلُها عَنِ البَيْتِ الأَحْمَرِ ، وَكانَتْ في حاجَةٍ إلى شَيْءٍ يُريحُها وَيُشَجِّعُها على مُواصَلَةِ المَسيرِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ شَيْئاً يُعينُها في المَواقِفِ الصَّعْبَةِ سِوى الأَفْيُونِ ، الَّذي كانَتْ تَحْتَفِظُ بِكَمِّيَّةٍ ضَئيلَةٍ مِنْهُ في قارورَةٍ داخِلَ جَيْبِها . وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَخْرَجَتِ القارورَةَ الصَّغيرَةَ ، وَأَفْرَغَتْ مُحْتَواها في جَوْفِها ، على الرَّغْمِ مِنْ خَوْفِها على الطِّفْلَةِ الَّتي كانَتْ تَحْمِلُها ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ سَيْرَها وَسْطَ الرِّياحِ البارِدَةِ ، الَّتي أَخَذَتْ تَهُبُّ بِشِدَّةٍ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَ البَرْدُ عَنِ النُّزولِ ، غَيْرَ أَنَّها كانَتْ تَسيرُ كالنّائِمَةِ ، أَوْ كالحالِمَةِ .

وَسُرْعانَ ما أَحْدَثَ المُخَدِّرُ أَثَرَهُ القَوِيَّ ، لا سِيَّما وَأَنَّ مَفْعولَهُ



اقْتَرَنَ بِما كانَتْ تُعانيهِ مِنَ البَرْدِ وَالتَّعَبِ ، فَشَعَرَتْ بِرَغْبَةٍ شَديدَةٍ في النَّوْمِ . وَلَمْ تَلْبَثْ أنِ اسْتَلْقَتْ عَلى أديمِ الثَّلْجِ النّاعِمِ ، مُسْنِدَةً رَأْسَها إلى شُجَيْرَةٍ مُنْخَفِضَةٍ ، غَيْرَ عابِئَةٍ بِما قَدْ يَحْدُثُ لِطِفْلَتِها الصَّغيرَةِ البَريئَةِ .

وَما إنِ اسْتَغْرَقَتْ في النَّوْمِ ، حَتّى سَقَطَتِ الطِّفْلَةُ مِنْ بَيْنِ ذِراعَيْها . وَصاحَتِ الطِّفْلَةُ مُنادِيَةً أُمَّها ، ثُمَّ حاوَلَتِ الصُّعودَ إلى حِجْرِها مَرَّةً أُخْرى ، وَلكِنَّها تَدَحْرَجَتْ إلى أسْفَلَ . وَفَجْأَةً جَذَبَ نَظَرَها ضَوْءٌ يَلْمَعُ على مَسافَةٍ قَريبَةٍ ، فَزَحَفَتْ نَحْوَهُ بادِئَ الأمْرِ

بِشَغَفِ الطُّفولَةِ وَفُضولِها ، ثُمَّ نَهَضَتْ وَسارَتْ في اتِّجاهِهِ بِخُطُواتٍ مُتَعَثِّرَةٍ .

كانَ الضَّوْءُ آتِيًا مِنْ نارٍ مَوْقَدَةٍ في مِدْفَأةِ سايْلاس مارْنَر ، وَلَمْ تَلْبَثِ الطِّفْلَةُ أنْ دَلَفَتْ إلى داخِلِ الكوخِ ، وَسارَتْ نَحْوَ النّارِ حَيْثُ الدِّفْءُ المُمْتِعُ المُريحُ . وَلَمّا كانَتْ مُعْتادَةً أنْ تَتْرُكَها أُمُّها بِمُفْرَدِها لِساعاتٍ طِوالٍ ، فَقَدْ جَلَسَتْ هُناكَ أمامَ المِدْفَأةِ عَلى مِعْطَفِ سايْلاس، الَّذي كانَ مَبْسوطًا عَلى الأرْضِ لِيَجِفَّ في لَفْحِ النّيرانِ ، وَأخَذَتْ تُراقِبُ اللَّهَبَ في تَلَذُّذٍ وَاسْتِمْتاعٍ . وَما إنْ سَرى الدِّفْءُ في

جَسَدِها النَّحيل ، حتَّى استَلْقَتْ فَوْقَ المِعطَفِ القَديم واستَغْرَقَتْ في نَوْم عَميقٍ .

وَلَكِنْ أَينَ كانَ سايْلاس مارنر حينَ دَلَفَتْ تِلْكَ الزَّائِرَةُ الغَريبَةُ إلى كُوخِهِ في ذَلِكَ المَساءِ المُمْطِرِ ؟ كانَ راقِداً داخِلَ الكُوخ ، بِلا وَعْيٍ أَوْ حَراكٍ . فَقَدْ دَأَبَ سايْلاس مُنْذُ أَنْ فَقَدَ مالَهُ على مُغادَرَةِ الكُوخ بِضعَ مَرَّاتٍ كُلَّ يوم ، وَالتَّلَفُّتِ حَوْلَهُ عَسى أَنْ تَحدُثَ مُعجِزَةٌ وَيَعْثُرَ على كَنْزِهِ المَفْقودِ . وَلَقَدْ أَخْبَرَهُ أَحَدُ جيرانِهِ ذَلِكَ الصَّباحَ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَلْزَمَ كُوخَهُ في المَساءِ ، لِيَسْمَعَ أَجْراسَ القَرْيَةِ وَهِيَ تُوَدِّعُ العامَ المُنْصَرِمَ وَتَسْتَقْبِلُ العامَ الجَديدَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَجْلِبُ لَهُ حَظّاً سَعيداً ، وَيُعيدُ إِلَيْهِ كَنْزَهُ المَفْقودَ . وَلَقَدْ قيلَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ قَبِلِ الدُّعابَةِ بِطَبيعَةِ الحالِ . غَيْرَ أَنَّ سايْلاس تَعَلَّقَ بِذَلِكَ القَوْلِ ، وَراوَدَهُ الأَمَلُ في العُثورِ على كَنْزِهِ مَرَّةً أُخْرى ، فَقامَ بَعْدَ هُبوطِ الظَّلامِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَفَتَحَ بابَ الكُوخ ، وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرَ سِوى الثُّلوجِ المُتَساقِطَةِ . وَفي المَرَّةِ الأَخيرَةِ كانَ البَرْدُ قَدْ تَوَقَّفَ ، فَتَرَكَ بابَهُ مَفْتوحاً ، وَعادَ إلى الدَّاخِلِ لِيَسْمَعَ أَجْراسَ القَرْيَةِ ، لَكِنَّ نَوْبَةَ مَرَضِهِ داهَمَتْهُ ، فاسْتَلْقى بِلا وَعْيٍ على الأَرْضِ . وَما إِنْ أَفاقَ حَتَّى نَهَضَ لِيُغْلِقَ بابَهُ ، وَهُوَ لا يَدْري أَنَّهُ كانَ في حالَةِ إِغْماءٍ ، وَأَنَّ زائِرَةً صَغيرَةً قَدْ دَلَفَتْ إلى كُوخِهِ أَثْناءَ النَّوْبَةِ . ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى المِدْفَأَةِ حَيْثُ

كانَتِ النِّيرانُ قَدْ خَبَتْ بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتِ الأَخْشابُ إلى رَمادٍ . وَانْحَنى سايْلاس على المِدْفَأَةِ لِيُذْكِيَ النَّارَ الخابِيَةَ فَخَطَفَ بَصَرَهُ الضَّعيفَ جِسْمٌ تَلُفُّهُ ظِلالٌ صَفْراءُ باهِتَةٌ . وَخَفَقَ قَلْبُهُ بِشِدَّةٍ إِذْ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ عَثَرَ على ذَهَبِهِ المَفْقودِ ، وَظَلَّ دَقائِقَ بِلا حَراكٍ وَهُوَ لا يَقْوى على مَدِّ يَدِهِ لِلإِمْساكِ بِذَلِكَ الجِسْمِ . وَأَخيراً انْحَنى إلى الأَمامِ وَمَدَّ يَدَهُ إلى ذَلِكَ الشَّيْءِ الأَصْفَرِ اللَّوْنِ ، وَلَكِنْ بَدَلاً مِنْ أَنْ تُمْسِكَ يَدُهُ بِالنُّقودِ الذَّهَبِيَّةِ ، أَمْسَكَتْ بِشَعْرِ الفَتاةِ الدَّافِئِ ذي التَّجَعُّداتِ الذَّهَبِيَّةِ الصَّفْراءِ. وَفي دَهْشَةٍ بالِغَةٍ رَكَعَ سايْلاس على رُكْبَتَيْهِ وَأَحْنى رَأْسَهُ لِيَتَفَحَّصَ ذَلِكَ الشَّيْءَ العَجيبَ ، وَسَرْعانَ ما اكْتَشَفَ أَنَّها طِفْلَةٌ صَغيرَةٌ جَميلَةٌ مُسْتَغْرِقَةٌ في النَّوْمِ ، وَأَغْمَضَ سايْلاس عَيْنَيْهِ ثُمَّ فَتَحَهُما جَيِّداً . أَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هَذا حُلْماً ، أَمْ أَنَّها أُخْتُهُ الصَّغيرَةُ الحَبيبَةُ ، الَّتي ماتَتْ مُنْذُ كانَ طِفْلاً ، قَدْ عادَتْ إِلَيْهِ الآنَ ؟! وَقامَ سايْلاس على الفَوْرِ بِإِلْقاءِ بَعْضِ الأَوْراقِ الجافَّةِ في المِدْفَأَةِ . وَعلى ضَوْءِ النِّيرانِ المُتَصاعِدَةِ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَبَيَّنَ بِوُضوحٍ شَكْلَ الطِّفْلَةِ النَّائِمَةِ في مَلابِسِها القَديمَةِ المُمَزَّقَةِ . لَقَدْ كانَتْ تُشْبِهُ تَماماً أُخْتَهُ الَّتي ماتَتْ مُنْذُ سَنَواتٍ طِوالٍ !

وَاسْتَلْقى سايْلاس في كُرْسِيِّهِ وَقَدْ خارَتْ قُواهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالانْفِعالِ . كَيْفَ دَخَلَتْ هَذِهِ الطِّفْلَةُ كُوخَهُ دونَ أَنْ يَراها ؟!

وَتَوارَدَتْ إلى خاطِرِهِ صورَةُ مَنْزِلِهِ القَديم وَصُوَرٌ مُتَتالِيَةٌ مِنْ حَياتِهِ الأولى في لانْتِرْن يارْد . وانْتابَهُ إحْساسٌ ، وكَأنَّهُ في حُلْم ، بِأنَّ هٰذِهِ الطِّفْلَةَ رِسالَةٌ بَعَثَتْ بِها إلَيْهِ السَّماءُ ، وَعِنْدَئِذٍ اجْتاحَهُ شُعورٌ جارِفٌ بِالحَنانِ البالِغ لَمْ يُحِسَّ بِمِثْلِهِ قَطُّ مِنْ قَبْلُ .

وَلَمْ تَلْبَثِ الطِّفْلَةُ أنِ اسْتَيْقَظَتْ وَشَرَعَتْ في البُكاءِ ، وَرَفَعَها في رِفْقٍ ، وَأجْلَسَها عَلى رُكْبَتِهِ . وَأحاطَتِ الطِّفْلَةُ عُنُقَهُ بِذِراعَيْها ، ثُمَّ أخَذَتْ تَبْكي وَتَصْرُخُ في طَلَبِ أمِّها ، وَاحْتَضَنَها سايْلاس في رِقَّةٍ وَحَنانٍ ، وَأخَذَ يُحْدِثُ لَها أصْواتًا مُخْتَلِفَةً لِيَصْرِفَها عَنِ البُكاءِ . وأنِسَتِ الطِّفْلَةُ إلى سايْلاس ، وَتَطَلَّعَتْ إلَيْهِ في ألْفَةٍ بِعَيْنَيْها الزَّرْقاوَيْنِ الواسِعَتَيْنِ . ثُمَّ نَهَضَ وَأحْضَرَ طَبَقًا مِنَ الطَّعام وَ وَضَعَهُ عَلى النّارِ لِيُدْفِئَهُ قَبْلَ أنْ يُطْعِمَهُ الطِّفْلَةَ . وَانْصَرَفَتِ الطِّفْلَةُ عَنِ البُكاءِ ، وَنَزَلَتْ عَنْ حِجْرِهِ وَأخَذَتْ تَتَمَشّى فِي الحُجْرَةِ . وَجَلَسَتْ عَلى الأرْضِ ، وَأخَذَتْ تُحاوِلُ خَلْعَ حِذائِها . وَأدْرَكَ سايْلاس أنَّ الحِذاءَ يُؤْلِمُ قَدَمَيْها فَنَزَعَهُ عَنْهُما ، عِنْدَئِذٍ انْطَلَقَتْ في أرْجاءِ الكوخ مَرِحَةً مُبْتَهِجَةً . وَنَظَرَ سايْلاس إلى الحِذاءِ المُبْتَلِّ فَعَرَفَ أنَّها سارَتْ عَلى الثَّلج في الخارِج مَسافَةً طَويلَةً قَبْلَ أنْ تَصِلَ إلى الكُوخ ، فَحَمَلَها بَيْنَ يَدَيْهِ عَلى الفَوْرِ ، وَخَرَجَ بِها إلى الطَّريقِ . وَما إنْ رَأتِ الطِّفْلَةُ الثُّلوجَ المُتَراكِمَةَ حَتّى صاحَتْ : « ماما ! ماما ! »

وَانْحَنى سايْلاس ، فَرَأى آثارَ أقْدام الطِّفْلَةِ على الثَّلْج ، فَراحَ يَتَتَبَّعُها حامِلاً الطِّفْلَةَ الَّتي كانَتْ تُلَوِّحُ بِيَدَيْها وَتَصيحُ قائِلَةً : « ماما! ماما !» إلى أنْ أتى تِلْكَ الشَّجَرَةَ المُنْخَفِضَةَ فَوَجَدَ بِجِوارِها جِسْمًا مُمَدَّدًا كادَتْ تُغَطِّيهِ الثُّلوجُ !

الفَصْلُ الحادِيَ عَشَرَ

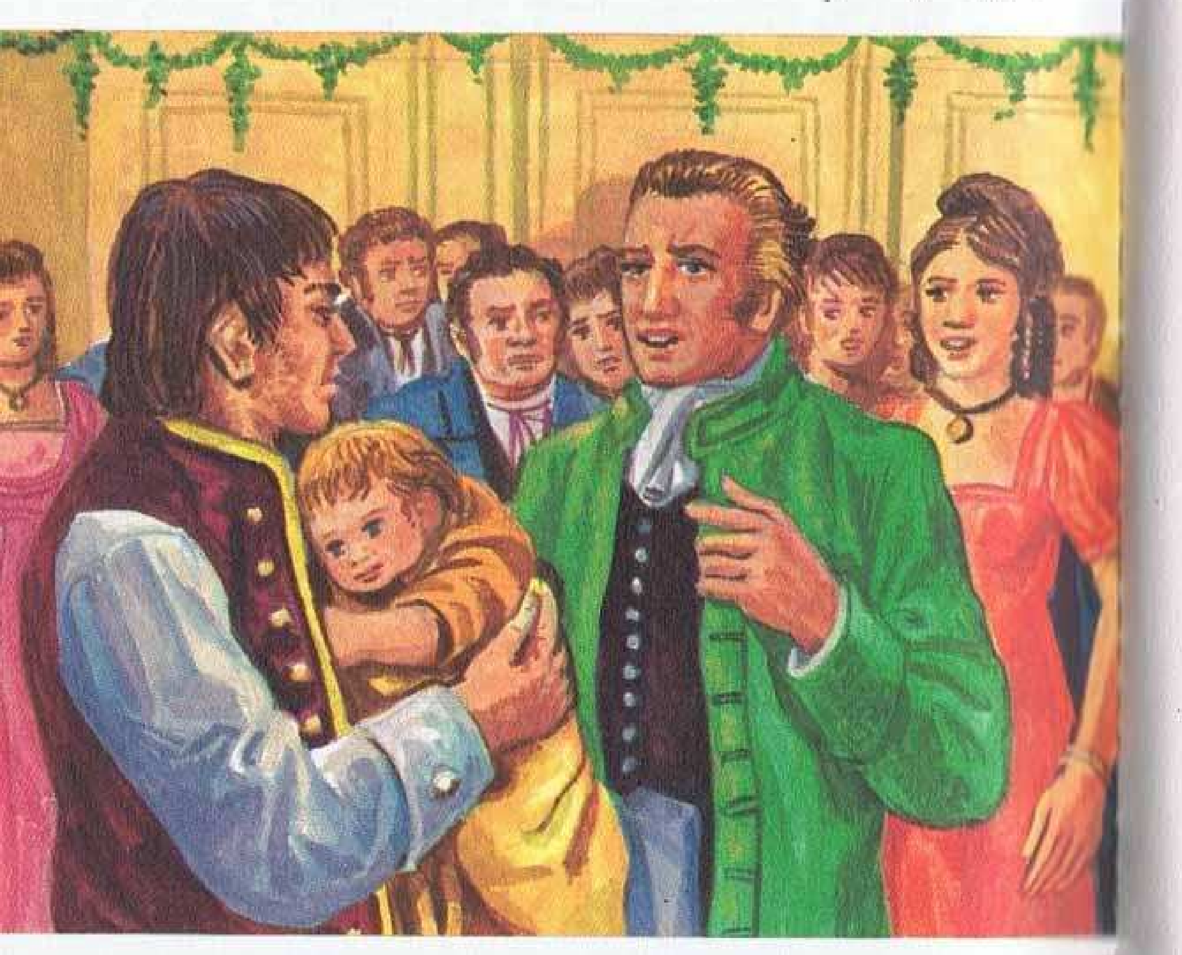
مُفاجَأَةٌ لِغودْفري كاس

انْفَضَّ العَشاءُ الكَبيرُ في البَيْتِ الأَحْمَرِ لَيْلَةَ رَأْسِ السَّنَةِ ، وَتَرَكَ الخَدَمُ حُجُراتِ المَطابِخِ الخَلْفِيَّةِ ، وَأَتَوْا لِمُشاهَدَةِ الرَّقْصِ الَّذي كانَ يَجْري في رَدْهَةِ الاسْتِقْبالِ البَيْضاءِ الفَسيحَةِ . كانَ لِلرَّدْهَةِ بابانِ كَبيرانِ ، وَتَزاحَمَ الخَدَمُ وَأَهْلُ القَرْيَةِ عِنْدَ أَحَدِهِما لِمُشاهَدَةِ رَقْصَةِ الجُنْدِيِّ المَشْهورَةِ ، الَّتي كانَ يَقومُ بِها أَحَدُ الشُّبّانِ . وَكانَ غودْفري يَقِفُ عَلى مَبْعَدَةٍ مِنْ جَمْهَرَةِ المُشاهِدينَ لِيَتَحاشى الظُّهورَ بِصُحْبَةِ نانْسي أَمامَ والِدِهِ ؛ كَيْ لا يُحْرِجَهُ بِنِكاتِهِ وَضَحِكاتِهِ العالِيَةِ الرَّنّانَةِ ، كَما كانَ يَتَرَقَّبُ انْتِهاءَ رَقْصَةِ الجُنْدِيِّ بِصَبْرٍ نافِذٍ ، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنْ مُراقَصَةِ نانْسي مَرَّةً أُخْرى .

وَلَكِنْ ما كادَ غودْفري يَرْفَعُ بَصَرَهُ عَنْ نانْسي ، حَتّى صُدِمَ بِشَيْءٍ مُذْهِلٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهُ عَلى بالٍ ؛ لَقَدْ رَأى ابْنَتَهُ الطِّفْلَةَ

يَحْمِلُها سايْلاس مارْنَر عَلى ذِراعِهِ . لَمْ يُراوِدْهُ أَدْنى شَكٍّ في أَنَّها طِفْلَتُهُ الوَحيدَةُ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَرَها مُنْذُ بِضْعَةِ شُهورٍ .

وَأَدْهَشَ حُضورُ سايْلاس المُفاجِئُ السَّيِّدَ ثورْب وَالسَّيِّدَ لاميتر فَتَقَدَّما نَحْوَهُ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِما غودْفري في الحالِ ، وَهُوَ يَتَلَهَّفُ عَلى سَماعِ كُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ سايْلاس ، وَإِنْ كانَ يُجاهِدُ في أَنْ يَبْدُوَ هادِئَ النَّفْسِ ، ساكِنَ الخاطِرِ ، يَتَكَتَّمُ ما يَدورُ في داخِلِهِ مِنْ مَشاعِرِ الوَجَلِ وَالاضْطِرابِ ، الَّتي يَكادُ يَفْضَحُها شُحوبُ وَجْهِهِ وَارْتِعاشُ ساقَيْهِ .



وَعِنْدَئِذٍ تَطَلَّعَتْ جَميعُ العُيونِ الَّتي فِي الحُجْرَةِ إلى سايْلاس مارْنر، وَنَهَضَ الشَّريفُ مُتسائِلاً في غَضَبٍ : « ما هَذا ؟! كَيْفَ دَخَلْتَ إلى هُنا ، وَماذا تُريدُ بِحُضورِكَ في هَذِهِ السّاعَةِ ؟»

أجابَ سايْلاس في خَوْفٍ وَانْفِعالٍ : « لَقَدْ أَتيتُ بَحْثاً عَن الطَّبيبِ . إنَّني أُريدُ الطَّبيبَ في الحالِ !»

سَأَلَهُ ثورْب : « ماذا في الأَمْرِ يا مارْنَر ؟ إنَّ الطَّبيبَ مَعَنا هُنا ، وَلَكِنْ أَخْبِرْنا لِماذا تُريدُهُ ؟»

أجابَ سايْلاس بِأَنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ ، وَكانَ غودْفري يَقْتَرِبُ مِنْهُ لِدَرَجَةِ الالْتِصاقِ : « إنَّها امْرَأَةٌ عَلى وَشْكِ المَوْتِ يا سَيِّدي ، وَلَعَلَّها ماتَتْ بِالفِعْلِ ! هُناكَ بَيْنَ الثُّلوجِ المُتَراكِمَةِ ، عِنْدَ المَحْجَرِ المُواجِهِ لِمَنْزِلي .»

وَقَفَزَ قَلْبُ غودْفري بَيْنَ ضُلوعِهِ ، وَاعْتَراهُ ذُعْرٌ عَظيمٌ ؛ كانَ يَخْشى ألا تَكونَ المَرْأَةُ قَدْ ماتَتْ بِالفِعْلِ ، وَأَنْ تَكونَ فَضيحَتُهُ أَمامَ النّاسِ قَدْ حانَ حينُها . وَأَيّاً كانَ الأَمْرُ ، فَقَدْ كانَتْ تِلْكَ المَشاعِرُ خَبيثَةً وَشِرّيرَةً بِالنِّسْبَةِ لِرَجُلٍ طَيِّبِ القَلْبِ كَغودْفري كاس .

وَأَمَرَ ثورْب سايْلاس أَنْ يَصْمُتَ حَتّى لا يُثيرَ ذُعْرَ السَّيِّداتِ ، ثُمَّ

هَمَسَ في أُذُنِ الشَّريفِ بِأَنَّ امْرَأَةً قَدْ وُجِدَتْ مُلْقاةً وَسْطَ الثَّلْجِ بَيْنَ الحَياةِ وَالمَوْتِ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ لاسْتِدْعاءِ دُكتور كِمْبل .

غَيْرَ أَنَّ النِّساءَ لَمْ يَلْبَثْنَ أَنِ انْدَفَعْنَ نَحْوَ سايْلاس لِمُشاهَدَةِ الطِّفْلَةِ الجَميلَةِ الَّتي يَحْمِلُها ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُنَّ الفُضولُ لِمَعْرِفَةِ السَّبَبِ ، الَّذي أَتى بِالنَّسّاجِ الَّذي يَعيشُ وَحيداً ، إلى البَيْتِ الأَحْمَرِ في مِثْلِ تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنْ لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ ، حامِلاً هَذِهِ الطِّفْلَةَ الجَذّابَةَ .

وَفي نَفَسٍ واحِدٍ سَأَلَتْ جَماعَةٌ مِنْهُنَّ تَتَقَدَّمُها نانْسي : « مَنْ تَكونُ هَذِهِ الطِّفْلَةُ الجَميلَةُ المِسْكينَةُ ؟»

أجابَ غودْفري في عَناءٍ بالِغٍ : « لَسْتُ أَدْري . إنَّها ابْنَةُ امْرَأَةٍ فَقيرَةٍ وُجِدَتْ مُلْقاةً عَلى الثَّلْجِ خارِجَ كوخِ مارْنَر .»

وَأَتَتْ زَوْجَةُ كِمْبل وَقالَتْ في حَنانٍ وَشَفَقَةٍ : « يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَتْرُكَ الطِّفْلَةَ هُنا يا سَيِّدُ مارْنَر .» وَتَرَدَّدَتْ في إجْلاسِ الطِّفْلَةِ ذاتِ المَلابِسِ الرَّثَّةِ المُتَّسِخَةِ فَوْقَ رِدائِها الأَنيقِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ نادَتْ إحْدى الخادِماتِ لِحَمْلِها .

وَهُنا انْبَرى سايْلاس مارْنَر قائِلاً : « لا ، لا ، لَنْ أَتْرُكَها . لَنْ

أفْترِقَ عَنْها . لَقَدْ جاءَتْ إلى كُوخي ، وَمِنْ حَقّي أنْ أبْقِيَها مَعي .»

وَجاءَ هَذا الإصْرارُ مِنْ جانِبِ سايْلاس مُفاجِئاً ، فَهُوَ لَمْ يُفكِّرْ في الاِحْتِفاظِ بِالطِّفْلَةِ مِنْ قَبْلُ .

وَهَمَستْ زَوْجَةُ كِمْبل لِجارَتِها في دَهْشَةٍ قائِلَةً : « هَلْ سَمِعْتِ في حَياتِكِ شَيْئاً أغْرَبَ مِنْ هَذا ؟!»

وَلَمْ يَلْبَثْ دُكْتور كِمْبل أنْ خَرَجَ مِنْ غُرْفَةِ لَعِبِ الوَرَقِ ، وَهُوَ يَقولُ بِصَوْتٍ عالٍ : « وَالآنَ أرْجو أنْ تَنْتَحينَ جانِباً أيَّتُها السَّيِّداتُ . أحْضِرْ لي حِذاءً ثَقيلاً يا غودْفري ، وَابْعَثْ بِأحَدِ الخَدَمِ في الحالِ لإحْضارِ السَّيِّدَةِ دُولي وِنْثروب مِنْ بَيْتِها ، فَهِيَ أقْدَرُ مَنْ يُعاوِنُنا في هَذا الظَّرْفِ . أيْنَ زَوْجُها السَّيِّدُ بن ؟ لَقَدْ كانَ هُنا قَبْلَ العَشاءِ ، هَلْ ذَهَبَ ؟»

قالَ مارْنَر : « أجَلْ يا سَيِّدي لَقَدْ قابَلْتُهُ على الطَّريقِ عِنْدَ قُدومي إلى هُنا ، وَلَكِنَّني لَمْ أسْتَطِع التَّوَقُّفَ لإخْبارِهِ بِالأمْرِ . قُلْتُ لَهُ فَقَطْ إنَّني ذاهِبٌ لاِسْتِدْعاءِ الطَّبيبِ ، فَقالَ إنَّ الطَّبيبَ مَوْجودٌ بِمَنْزِلِ العُمْدَةِ .»

عِنْدَئِذٍ أخَذَتِ الطِّفْلَةُ تَبْكي وَتَصْرُخُ في طَلَبِ أمِّها ، فَقالَ

غودْفري ، وَقَدْ تَزايَدَ شُعورُهُ بِالذَّنْبِ : « سَوْفَ أذْهَبُ في الحالِ لإحْضارِ السَّيِّدَةِ دُولي وِنْثروب .»

وَأسْرَعَ غودْفري بِمُغادَرَةِ المَنْزِلِ حَتّى لايَبْدُوَ لِلحاضِرينَ قَلَقُهُ الشَّديدُ ، وَاضْطِرابُهُ العَنيفُ . وَانْدَفَعَ كالسَّهْمِ نَحْوَ المَحْجَرِ الصَّغيرِ ، ذاهِلاً عَنْ أنْ يَسْتَبْدِلَ بِحِذائِهِ الخَفيفِ حِذاءً آخَرَ ثَقيلاً ، يَتَلاءَمُ وَالسَّيْرَ فَوْقَ الثَّلْجِ الَّذي كانَ يَفْتَرِشُ أرْضَ الطَّريقِ .

وَقالَتْ لَهُ زَوْجَةُ وِنْثروب ، الَّتي كانَتْ مَدْهوشَةً لِقَلَقِهِ وَاهْتِمامِهِ البالِغَيْنِ : « يَحْسُنُ أنْ تَعودَ أدْراجَكَ يا سَيِّدُ غودْفري ، فَإنَّ الحِذاءَ الخَفيفَ الَّذي تَلْبَسُهُ قَدْ يَتَسَبَّبُ في إصابَتِكَ بِبَرْدٍ شَديدٍ .»

قالَ غودْفري في إصْرارٍ : « لا ، سَأذْهَبُ مَعَكِ إلى هُناكَ .»

وَلَمّا بَلَغا كُوخَ مارْنَر ، قالَ غودْفري لِزَوْجَةِ وِنْثروب : « سَأنْتَظِرُكِ في الخارِجِ رَيْثَما تَتَبَيَّنينَ الأمْرَ ، فَأقَدِّمُ ما أسْتَطيعُ مِنْ مُساعَدَةٍ .»

أجابَتْ دُولي وَهِيَ تَتَّجِهُ نَحْوَ البابِ : « حَسَنٌ ، إنَّكَ لَطَيِّبُ القَلْبِ جِداً يا سَيِّدي .»

وَأخَذَ غودْفري يَسيرُ جَيْئَةً وَذَهاباً ، دونَ أنْ يُحِسَّ بِالثَّلْجِ أوِ البَرْدِ القارِسِ . كانَ عَقْلُهُ مُشْتَغِلاً بِما يَجْري داخِلَ الكُوخِ ، وَبِما قَدْ

يَتَرَتَّبُ على ذَلِكَ مِنْ تأثيرٍ على حَياتِهِ المُسْتَقْبَلَةِ . كانَ ضَميرُهُ يُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَعْتَرِفَ أمامَ النّاسِ بِزَوْجَتِهِ البائِسَةِ ، وَيَأْخُذَ ابْنَتَهُ لِتَتَرَبّى في كَنَفِهِ، غَيرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ مِنَ الشَّجاعَةِ ما يُمَكِّنُهُ مِنَ الإِقْدامِ عَلى ذَلِكَ ، كَما أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ في الوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ يَفْقِدَ نانْسي إلى الأَبَدِ . وَفَجْأَةً داعَبَهُ الأَمَلُ في الخَلاصِ مِنْ مَتاعِبِهِ بِمَوْتِ مُولي ، فَلَعَلَّهُ يَسْتَطيعُ حينَئِذٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ نانْسي ، وَأَنْ يَكْفُلَ لِطِفْلَتِهِ الرِّعايَةَ بِطَريقَةٍ أَوْ بِأُخْرى !

وَلَمْ يَشْعُرْ غودْفري بِمُرورِ الوَقْتِ إلى أَنْ فُتِحَ بابُ الكُوخِ ، وَخَرَجَ الطَّبيبُ كِمْبل لِيُعْلِنَ أَنَّ المَرْأَةَ قَدْ تُوُفِّيَتْ مُنْذُ ساعاتٍ !

سَأَلَ كِمْبل غودْفري : « ما الَّذي حَدا بِكَ إلى المَجيءِ في هَذا الصَّقيعِ ؟»

أجابَ غودْفري ، وَهُوَ يَتَصَنَّعُ عَدَمَ الاكْتِراثِ : « لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُرافِقَكَ فَحَسْبُ . وَلَكِنْ مَنْ تَكونُ هَذِهِ المَرْأَةُ ؟»

« إِنَّها شابَّةٌ نَحيلَةُ الجِسْمِ ذاتُ شَعْرٍ طَويلٍ أَسْوَدَ ، تَبْدو في مَلابِسِها الرَّثَّةِ كَشَحّاذَةٍ ، وَإِنْ كانَتْ تَحْمِلُ خاتَمَ زَواجٍ في إِصْبَعِها. هَيّا بِنا نَعودُ .»

قالَ غودْفري : « سَوْفَ أَلْحَقُ بِكَ خِلالَ دَقيقَتَيْنِ . أُريدُ إِلْقاءَ نَظْرَةٍ عَلَيْها ؛ إِذْ أَعْتَقِدُ أَنَّني رَأَيْتُ البارِحَةَ امْرَأَةً مِثْلَها .»

وَمَضى الطَّبيبُ كِمْبل في طَريقِهِ ، وَوَلَجَ غودْفري الكُوخَ . وَتَأَكَّدَ مِنَ النَّظْرَةِ الأُولى إلى السَّيِّدَةِ المِسْكينَةِ أَنَّها زَوْجَتُهُ !

وَاسْتَدارَ إلى المِدْفَأَةِ الَّتي كانَ يَجْلِسُ إلى جِوارِها سايْلاس مارْنَر حامِلاً الطِّفْلَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَطَلَّعَ إلى ابْنَتِهِ ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْها الزَّرْقاوَيْنِ الصّافِيَتَيْنِ دونَ أَنْ تَدْرِيَ أَنَّهُ أَبوها ! وَشَعَرَ غودْفري لِذَلِكَ بِمَشاعِرَ مُتَشابِكَةٍ مِنَ الحُزْنِ وَالسُّرورِ . ثُمَّ تَحَوَّلَتِ الطِّفْلَةُ بِبَصَرِها إلى وَجْهِ مارْنَر ، وَأَخَذَتْ تُرَبِّتُ عَلى خَدِّهِ بِيَدِها النَّحيلَةِ .

قالَ غودْفري لِسايْلاس ، وَهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ دَلائِلَ اهْتِمامِهِ بِالأَمْرِ : « يُمْكِنُكَ الاحْتِفاظُ بِهَذِهِ الطِّفْلَةِ حَتّى الغَدِ ، وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ نَجِدُ لَها المَكانَ الَّذي تَلْقى فيهِ الرِّعايَةَ وَالاهْتِمامَ .»

أَجابَ سايْلاس في حِدَّةٍ شَديدَةٍ : « مَنْ قالَ ذَلِكَ ؟ لَنْ يَسْتَطيعَ أَحَدٌ أَنْ يُجْبِرَني عَلى التَّخَلّي عَنْ هَذِهِ الطِّفْلَةِ .»

« ماذا ! إِنَّكَ رَجُلٌ مُتَقَدِّمٌ في السِّنِّ ، وَلا تَنْوي أَنْ تَسْتَبْقيَها مَعَكَ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« سَوْفَ أَسْتَبْقيها مَعي إِلى أَنْ يَظْهَرَ أَبوها ، أَوْ صاحِبُ الحَقِّ الشَّرْعِيِّ في أَنْ يَكْفُلَها . لَقَدْ ماتَتْ أُمُّها ، وَأَغْلَبُ ظَنّي أَنَّ أَباها قَدْ ماتَ كَذٰلِكَ . إِنَّها طِفْلَةٌ وَحيدَةٌ ، وَأَنا رَجُلٌ وَحيدٌ أَيْضاً . ما الَّذي يَمْنَعُ إِذاً مِنْ أَنْ أَتَبَنّاها ؟ لَقَدْ ذَهَبَتْ نُقودي ، وَلا أَدْري إِلى أَيْنَ ؛ ثُمَّ جاءَتْني هٰذِهِ الطِّفْلَةُ ، وَلا أَدْري مِنْ أَيْنَ !»

قالَ غودْفري : « يا لَها مِنْ مَخْلوقَةٍ تَعِسَةٍ ! دَعْني أُقَدِّمْ بَعْضَ المالِ لِتَبْتاعَ بِهِ مَلابِسَ جَديدَةً لَها .»

وَلَمْ يَجِدْ غودْفري في جَيْبِهِ سِوى قِطْعَةِ نُقودٍ فِضِّيَّةٍ كَبيرَةٍ ، فَأَعْطاها لِسايْلاس ، ثُمَّ أَسْرَعَ لِلَّحاقِ بِكِمْبِل .

وَوَصَلَ غودْفري إِلى البَيْتِ الأَحْمَرِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شُعورٌ قَوِيٌّ بِالرّاحَةِ وَالاطْمِئْنانِ ، طَغى عَلى مَشاعِرِ الأَلَمِ وَتَأْنيبِ الضَّميرِ الَّتي كانَتْ تَجْتاحُهُ . لَقَدْ خالَ حينَئِذٍ أَنَّ الأَمَلَ في زَواجِهِ بِنانْسي عَلى وَشْكِ أَنْ يَتَحَقَّقَ ، وَأَنَّهُ لا خَطَرَ مِنِ اكْتِشافِ أَمْرِ زَواجِهِ السِّرِّيِّ السّابِقِ ، فَإِنَّ مُسَجِّلَ العُقودِ الَّذي سَجَّلَ ذَلِكَ الزَّواجَ يَقْطُنُ في جِهَةٍ بَعيدَةٍ ، كَما أَنَّهُ لا مَصْلَحَةَ لِأَحَدٍ في كَشْفِ هٰذا الأَمْرِ . إِنَّ أَخاهُ دَنْسي هُوَ الشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَكْشِفَ سِرَّهُ ، لٰكِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَشْتَرِيَ سُكوتَ دَنْسي بِوَسيلَةٍ أَوْ بِأُخْرى .

الفَصْلُ الثّاني عَشَر

سايْلاس يَتَبَنّى إيبي

اِنْتَهَتْ مَراسِمُ تَشْييعِ جِنازَةِ المَرْأَةِ الغامِضَةِ ، وَعَمَّ أَهْلَ القَرْيَةِ شُعورٌ بِالعَجَبِ وَالدَّهْشَةِ لِإِصْرارِ سايْلاس مارْنَر عَلى الاحْتِفاظِ بِالطِّفْلَةِ الَّتي لَمْ تَتَعَدَّ السَّنَتَيْنِ مِنْ عُمْرِها . وَظَلَّ الحَدَثُ مَوْضوعاً لِحَديثِهِمْ وَتَعْليقاتِهِمْ رَدَحاً طَويلاً مِنَ الزَّمَنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ جَلَبَ لِسايْلاس مِنْ عَطْفِهِمْ وَاهْتِمامِهِمْ ، لا سِيَّما النِّساءُ مِنْهُمْ ، أَضْعافَ ما جَلَبَ عَلَيْهِ حادِثُ السَّطْوِ عَلى نُقودِهِ . فَقَدْ أَخَذَ الرِّجالُ يَبْذُلونَ لَهُ العَوْنَ ، كَما شَرَعَتِ النِّسْوَةُ يَبْعَثْنَ إِلَيْهِ بِالهَدايا ، وَيُرْشِدْنَهُ إِلى أَفْضَلِ السُّبُلِ لِرِعايَةِ الطِّفْلَةِ وَتَنْشِئَتِها . لٰكِنَّ المَعونَةَ الَّتي سُرَّ بِها سايْلاس حَقّاً كانَتْ تِلْكَ الَّتي أَتَتْهُ مِنَ السَّيِّدَةِ دولي وِنْثروب ، فَهِيَ لا تَمُنُّ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، وَلا تُحاوِلُ إِظْهارَ جَهْلِهِ بِشُئونِ الأَطْفالِ . وَلَقَدْ قَدَّمَ سايْلاس لِلسَّيِّدَةِ دولي نُقوداً لِشِراءِ مَلابِسَ جَديدَةٍ لِلطِّفْلَةِ ، فَأَجابَتْهُ قائِلَةً : « آهِ

يا سَيِّدُ مارْنر ! لا حاجَةَ بِكَ إلى شِراءِ شَيْءٍ عَدا زَوْجٍ مِنَ الأَحْذِيَةِ ، فَإِنَّ لَدَيَّ المَلابِسَ الَّتي كانَ يَلْبَسُها آرون مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ ، وَهِيَ تَصْلُحُ تَماماً لِلطِّفْلَةِ ؛ فَإِنَّ جِسْمَها يَنْمو بِسُرْعَةٍ ، وَمِنَ الحَماقَةِ أَنْ نَشْتَرِيَ لَها مَلابِسَ جَديدَةً الآنَ .»

وَأَحْضَرَتِ السَّيِّدَةُ دُولي المَلابِسَ الَّتي كانَ بَعْضُها مَرْفُوّاً أَوْ مَرْقوعاً ، وَلٰكِنَّها كانَتْ في غايَةِ النَّظافَةِ . وَأَعْطَتِ السَّيِّدَةُ دُولي لِلطِّفْلَةِ حَمّاماً دافِئاً ، خَرَجَتْ مِنْهُ نَظيفَةً وَجَميلَةً لِلْغايَةِ ، وَقَدْ لَمَعَ شَعْرُها الذَّهَبِيُّ البَديعُ . وَاسْتَلْقَتِ الطِّفْلَةُ عَلى صَدْرِ السَّيِّدَةِ دُولي في حُبورٍ وَاطْمِئْنانٍ ، وَهِيَ تُناديها قائِلَةً : « ماما ! ماما !»

وَلَمْ تَلْبَثْ دُولي أَنْ قالَتْ لِسايْلاس : « أَعْتَقِدُ أَنَّكَ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدُ مارْنَر في الاحْتِفاظِ بِهٰذِهِ الطِّفْلَةِ الرّائِعَةِ ، فَإِنَّ السَّماءَ قَدْ أَرْسَلَتْها لَكَ . رُبَّما تُتْعِبُكَ قَليلاً وَهِيَ في هٰذِهِ السِّنِّ الصَّغيرَةِ ، وَلٰكِنَّهُ يَسُرُّني أَنْ أَحْضُرَ إِلَيْكَ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ لِمُساعَدَتِكَ في تَدْبيرِ شُئونِها .»

أَجابَ سايْلاس : « أَشْكُرُكِ مِنْ كُلِّ قَلْبي ، غَيْرَ أَنَّني أُفَضِّلُ أَنْ تَقومي بِإِرْشادي فَحَسْبُ ، لأَنَّني أَجِدُ مُتْعَةً كَبيرَةً في قَضاءِ حاجاتِها بِنَفْسي ، وَأَخْشى إِنْ تَوَلّى أَحَدٌ غَيْري شُئونَها أَنْ تُغْرَمَ بِهِ لا بي .»

قالَتِ السَّيِّدَةُ دُولي : « لَقَدْ رَأَيْتُ طَوالَ حَياتي رِجالاً كَثيرينَ يُحِبّونَ الأَطْفالَ إِلى هٰذِهِ الدَّرَجَةِ .»

وَأَخَذَتِ السَّيِّدَةُ دُولي تُعَلِّمُ سايْلاس كَيْفَ يُلْبِسُ الطِّفْلَةَ وَيُطْعِمُها عَلى الوَجْهِ الصَّحيحِ ، وَكانَ سايْلاس يُصْغي إِلَيْها في شَغَفٍ وَاهْتِمامٍ. وَمَدَّتِ الطِّفْلَةُ ذِراعَيْها نَحْوَ سايْلاس ، فَصاحَتِ السَّيِّدَةُ دُولي قائِلَةً : « أُنْظُرْ ! أُنْظُرْ ! لَقَدْ بَدَأَتْ تُغْرَمُ بِكَ . خُذْها يا سَيِّدُ مارْنَر وَاشْرَعْ في إِلْباسِها ، حينَئِذٍ يُمْكِنُكَ أَنْ تَقولَ بِحَقٍّ إِنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ لَها كُلَّ شَيْءٍ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتي أَتَتْ فيها إِلَيْكَ .»

وَحَمَلَها مارْنر بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَأَلْبَسَها بِمُساعَدَةِ دُولي التي قالَتْ لَهُ: « وَلٰكِنْ ماذا سَتَفْعَلُ يا سَيِّدُ مارْنر عِنْدَما تُضْطَرُّ لِلْجُلوسِ إِلى النَّوْلِ لِلْعَمَلِ ؟ سَوْفَ تَتَجَوَّلُ الطِّفْلَةُ هُنا وَهُناكَ ، وَحينَئِذٍ قَدْ تَتَعَرَّضُ لِلْخَطَرِ .»

وَبَدا القَلَقُ عَلى وَجْهِ سايْلاس ، وَفَكَّرَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَ : « سَوْفَ أُقَيِّدُها إِلى رِجْلِ النَّوْلِ بِرِباطٍ ما .»

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ دُولي : « حَسَنٌ ، رُبَّما يَنْفَعُ هٰذا وَهِيَ طِفْلَةٌ صَغيرَةٌ ، أَمّا حينَ تَشِبُّ فَسَوْفَ أُحْضِرُ لَكَ ، عَلى أَيَّةِ حالٍ ، كُرْسِيّاً صَغيراً وَبِضْعَةَ لُعَبٍ لِتَلْهُوَ بِها ؛ عِنْدَئِذٍ سَوْفَ تَجْلِسُ إِلى هٰذِهِ اللُّعَبِ،

وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْها في رِضاً وَسَعادَةٍ .»

وَصَمَتَتِ السَّيِّدَةُ دُولي لَحْظَةً ، ثُمَّ أَرْدَفَتْ : « وَلَكِنْ لا تَنْسَ يا سَيِّدُ مارْنَر أَنَّنا لَمْ نُسَمِّ الطِّفْلَةَ اسْماً بَعْدُ . يَجِبُ أَنْ نَتَّفِقَ عَلى الاِسْمِ .»

« أَجَلْ . أَنا أُحِبُّ أَنْ أُسَمِّيَها إِيبي . هَذا هُوَ الاسْمُ المُخْتَصَرُ الَّذي كُنّا نَدْعو بِهِ أُخْتي الصَّغيرَةَ ، يَرْحَمُها اللَّهُ !»

قالَتْ دُولي : « إِنَّهُ اسْمٌ جَميلٌ سَهْلُ النُّطْقِ . سَوْفَ أُرْسِلُ لَها ابْني آرون لِيُرِيَها العَرَبَةَ الصَّغيرَةَ الَّتي صَنَعَها لَهُ والِدُهُ ، وَسَوْفَ أَقومُ بِغَسْلِ مَلابِسِها مَعَ مَلابِسِنا في المَواعيدِ المُخَصَّصَةِ لِذَلِكَ . وَالآنَ حانَ مَوْعِدُ عَوْدَتي إِلى المَنْزِلِ ، فَإِلى اللِّقاءِ يا سَيِّدُ مارْنَر .»

عَرَفَ أَهْلُ القَرْيَةِ أَنَّ اسْمَ الطِّفْلَةِ إِيبي ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحين تَوَطَّدَتْ صِلاتُ مارْنَر بِهِمْ ، وَقَوِيَ تَعامُلُهُ مَعَهُمْ ؛ فَقَدْ قَرَّبَتْهُ إِيبي إِلَيْهِمْ ، وَقَرَّبَتْهُمْ إِلَيْهِ ، فَنَما في قُلوبِهِمُ الحُبُّ لَهُ ، وَالعَطْفُ عَلَيْهِ ، بَعْدَ أَنِ اجْتَنَبوهُ مُدَّةَ خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً . لَقَدْ كانَ حُبُّهُ لِلْمالِ يَحْمِلُهُ عَلى الجُلوسِ إِلى النَّوْلِ نَهاراً وَلَيْلاً ، كَيْ يَسْتَزيدَ مِنَ النُّقودِ الفِضِّيَّةِ وَالذَّهَبِيَّةِ ، الَّتي كانَ يَخْطِفُ قَلْبَهُ بَريقُها اللامِعُ ، غَيْرَ أَنَّ إِيبي قَدْ حَلَّتِ الآنَ في قَلْبِهِ مَحَلَّ النُّقودِ ، وَاسْتَوْلى شَعْرُها الذَّهَبِيُّ عَلى لُبِّهِ

بَدَلاً مِنَ الذَّهَبِ البَرّاقِ . وَهَكَذا خَرَجَ سايْلاس مِنْ عُزْلَتِهِ إِلى العالَمِ المُحيطِ بِهِ بِفَضْلِ إِيبي ، وَأَصْبَحَ يَجِدُ مُتْعَةً في عِشْرَةِ النّاسِ وَمَحَبَّتِهِمْ ، وَفي النُّزْهاتِ وَالرِّحْلاتِ وَالزِّياراتِ ، وَفي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْهَواءِ الطَّلْقِ . لَقَدْ بَدَأَ يَسْتَمْرِئُ العَيْشَ بَعْدَ أَنْ كانَ مَحْروماً مِنْ لَذائِذِهِ ، وَيُحِسُّ أَنَّ حَياتَهُ عامِرَةٌ حافِلَةٌ بِالعَطاءِ بَعْدَ أَنْ كانَتْ خاوِيَةً مُقْفِرَةً كَالصَّحْراءِ .

هَكَذا عادَ لِسايْلاس كَنْزُهُ المَفْقودُ ، وَلَكِنْ في صورَةٍ أَجَلَّ وَأَفْضَلَ !

وَفي فَصْلِ الصَّيْفِ كانَ سايْلاس يَخْرُجُ بِفَتاتِهِ الصَّغيرَةِ عِنْدَ الغُروبِ ، إِلى الحُقولِ المُتَرامِيَةِ خَلْفَ المَحْجَرِ ، حَيْثُ كانَتْ تَنْتَشِرُ الزُّهورُ وَالرَّياحينُ . كانَ يَجْلِسُ عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ مِنْها ، بَيْنَما كانَتْ تَنْطَلِقُ عَلى سَجِيَّتِها تَقْطِفُ الزُّهورَ وَتَرْقُبُ الطُّيورَ ، ثُمَّ تَجْري نَحْوَهُ صائِحَةً : « بابا ! بابا !» لِكَيْ تَلْفِتَ نَظَرَهُ إِلى بَعْضِ الأَشْياءِ الَّتي اسْتَرْعَتِ انْتِباهَها . وَكانَ مُعْتاداً أَنْ يَرْبِطَها إِلى النَّوْلِ بِسَيْرٍ كَبيرٍ مِنَ الكَتّانِ ، عِنْدَما يَكونُ مَشْغولاً عَنْها بِعَمَلِهِ . وَكانَ ذَلِكَ السَّيْرُ يَنْتَهي بِحِزامٍ عَريضٍ يَلْتَفُّ حَوْلَ وَسَطِها ، ثُمَّ يَسْتَطيلُ لِيَصِلَ بِها إِلى أَعْلى الفِراشِ ، وَهُوَ أَقْصى ما يُمْكِنُها الوُصولُ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ

لها بتسلّقِ شيءٍ سوى السّريرِ .

وفي ذاتِ يومٍ تناولَتِ الطِّفْلَةُ مِقصَّ مارنر أثناءَ انْشغالِهِ عنْها بِعمَلِهِ ، وقطعَتْ بِهِ السّيرَ الّذي يربُطُها ، وانْطَلَقَتْ تعدو إلى الحقولِ خارِجَ الكوخِ . وجرى مارنر بحثًا عنْها في كُلِّ مكانٍ ، وهُوَ يكادُ يُجنُّ مِنَ اللّهفةِ والقلَقِ ؛ خشْيَةَ أنْ تكونَ قدْ سقطَتْ في حُفْرَةِ المَحْجرِ القديمِ ، لكنّهُ لمْ يلْبثْ أنْ وجدَها جالسَةً إلى جانبِ بِرْكَةٍ موحِلَةٍ ، وقدْ رمَتْ بحذائِها في الماءِ .

ومعَ أنّهُ كانَ مِنَ العسيرِ على مارنر أنْ يحْمِلَ إيبي والكتّانَ الّذي يُنْتِجُهُ في آنٍ واحدٍ معاً ، فقدْ كانَ يأْخُذُها معَهُ دائماً إلى منازِلِ عُملائِهِ الّذينَ يبيعُ لهُمُ النّسيجَ . ولمْ تلْبثِ الطِّفْلَةُ الجميلَةُ ذاتُ الشّعْرِ الذّهبيِّ ، أنْ صارَتْ مشْهورةً في معْظَمِ منازِلِ القرْيةِ وما حوْلَها مِنَ المزارعِ . وفتحَتِ السّيّداتُ أبْوابَ منازِلِهِنَّ لِسايْلاس مارنر وطِفْلتِهِ السّاحرةِ ، بعْدَ أنْ كُنَّ يخْشيْنَهُ ، كما أنّهُنَّ أصْبحْنَ دائماتِ الاسْتِفْسارِ عنْ صحّةِ الطِّفْلَةِ وأحْوالِها ، حريصاتٍ على تزويدِهِ بالهدايا ، بالإضافةِ إلى ثمنِ الكتّانِ الّذي يشْتَرينَهُ منْهُ . وانْعقدَتِ الصّداقاتُ بيْنَ إيبي وقريناتِها مِنْ أطْفالِ القرْيةِ ، فكُنَّ يقْصِدْنَ كوخَها كثيراً معَ أمّهاتِهِنَّ أوْ أخواتِهِنَّ .

ثمّةَ شخصٌ كانَ يُراقِبُ نُموَّ إيبي في كنَفِ النّسّاجِ باهْتِمامٍ وشغفٍ يفوقانِ اهتمامَ وشغفَ الآخرينَ ، على الرّغْمِ مِنْ أنّهُ كانَ يفْعلُ ذلِكَ بصورةٍ خفيّةٍ ؛ كانَ ذلِكَ الشّخصُ هُوَ غودْفري كاس ، أباها الحقيقيَّ .

لمْ يكُنْ غودْفري ليجْرُؤَ على إظْهارِ اهْتِمامِهِ الشّديدِ بالطِّفْلَةِ بصورةٍ ملْحوظَةٍ ، غيْرَ أنّهُ كانَ يعْطي لِسايْلاس نُقوداً كُلّما قابلَهُ ، ليشْتريَ بها ملابِسَ أوْ حلْوياتٍ لِلْفتاةِ . كانَ يعْلَمُ أنَّ الطِّفْلَةَ تتمتّعُ برِعايَةٍ تامّةٍ ، وأنّها قدْ تكونُ أسْعَدَ حالاً مِنْ كثيرٍ مِنْ أطْفالِ الأغْنياءِ، بيْدَ أنّهُ كانَ يعْتزِمُ أنْ يُقدِّمَ لها في المُسْتقْبلِ ما هُوَ أكْثرُ مِنْ ذلِكَ دونَ إثارةٍ لِلشُّكوكِ . على أنَّ غودْفري كاس كانَ يبْدو حينئذٍ أسْعَدَ حالاً مِنْ ذي قبْلُ ، فلقدْ تحوّلَ إلى رجُلٍ آخرَ يمْقُتُ الشّرَّ والرّذيلَةَ ، كما صارَ لهُ هدفٌ محدّدٌ في الحياةِ ، هُوَ الزّواجُ بِنانْسي لاميتر وتكْوينُ أسْرةٍ سعيدةٍ هانئةٍ ، يلْتفُّ فيها الأطْفالُ حوْلَهُما إلى جوارِ المدْفأةِ . لمْ يعُدْ يخْشى عوْدةَ شقيقِهِ دانسْتان ، الّذي قالَ بعْضُ النّاسِ عنْهُ إنّهُ قدِ انْخرطَ في سلْكِ الجُنْديّةِ ، وأشاعَ آخرونَ أنّهُ غادرَ البِلادَ إلى الخارجِ ، وصارَ يذْهبُ كُلَّ يوْمٍ على ظهْرِ جوادِهِ إلى بيْتِ آلِ لاميتر ، كما أخذَ النّاسُ يترقّبونَ إعْلانَ موْعدِ الزّفافِ عنْ قريبٍ .

الفصلُ الثّالِثَ عَشَرَ

الحَياةُ في الكُوخ

مَرّتْ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً عَلى عُثورِ سايْلاس مارْنَر عَلى إيبي في كُوخِهِ ، أَوْ بِالأَحْرى عَلى كَنْزِهِ الجَديدِ . وَفي ذاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الآحادِ كانَ أَهْلُ القَرْيَةِ عائِدينَ إلى بُيوتِهِمْ وَفي مُقَدِّمَتِهِمُ السَّيِّدُ غودْفري كاس ، وَكانَ قَدْ بَلَغَ الثّانِيَةَ وَالأَرْبَعينَ مِنَ العُمْرِ ، وَإلى جانِبِهِ زَوْجَتُهُ الجَميلَةُ السَّيِّدَةُ نانْسي لاميتر . وَلَمْ يَكُنْ وَجْهُهُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيراً عَمّا كانَ عَلَيْهِ في سِنِّ السّادِسَةِ وَالعِشْرينَ ، وَلكِنَّ جِسْمَهُ قَدِ اكْتَنَزَ قَليلاً . أَمّا زَوْجَتُهُ الَّتي كانَتْ في مِثْلِ سِنِّهِ تَقْريباً ، فَقَدِ اعْتَراهَا تَغْييرٌ أَكْبَرُ ، غَيْرَ أَنَّ روحَها السّامِيَةَ وَشَخْصِيَّتَها النَّبيلَةَ كانَتا تُضْفِيانِ عَلى وَجْهِها حُسْناً وَجَلالاً بادِيَيْنِ .

وَتَلَفَّتَ السَّيِّدُ غودْفري وَزَوْجَتُهُ حَوْلَهُما بَحْثاً عَنْ والِدِها السَّيِّدِ لاميتر وَأُخْتِها بريسيلا ، ثُمَّ سارَ الجَميعُ عَبْرَ المَمَرِّ الضَّيِّقِ الَّذي

يُفْضي إلى بَوّابَةٍ صَغيرَةٍ مُواجِهَةٍ لِلْبَيْتِ الأَحْمَرِ .

كانَ سايْلاس مارْنَر قَدْ أَصبحَ أَشْهَرَ مِنْ نارٍ عَلى عَلَمٍ ، وَكانَ قَدْ بَلَغَ الخامِسَةَ وَالخَمْسينَ مِنَ العُمْرِ ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ يَبْدو بِكَتِفَيْهِ المُقَوَّسَتَيْنِ وَشَعْرِهِ الشَّديدِ البَياضِ أَكْبَرَ سِنّاً مِنْ ذلِكَ . كانَتْ عَيْناهُ العَسَلِيَّتانِ الواسِعَتانِ لا تَزالانِ حادَّتَيِ البَصَرِ ، وَكانَتْ تَسيرُ إلى جانِبِهِ فَتاةٌ حُلْوَةٌ جَذّابَةٌ في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها ، هِيَ إيبي ابْنَتُهُ بِالتَّبَنّي . وَكانَتْ ذاتَ شَعْرٍ أَصْفَرَ مُتَجَعِّدٍ لا نَظيرَ لَهُ عَلى فَتاةٍ أُخْرى في راڤيلو ، وَإنْ كانَ عَصِيّاً عَلى التَّمْشيطِ ، غَيْرَ أَنَّها كانَتْ تُحاوِلُ دائِماً تَشْذيبَ ذلِكَ الشَّعْرِ الجَذّابِ الرّائِعِ ، لأَنَّها كانَتْ تُريدُهُ مُصَفَّفاً مُنَظَّماً كَطَبيعَتِها الرَّقيقَةِ المُهَذَّبَةِ ، وَطَبْعِها الَّذي يَميلُ إلى الهُدوءِ وَالنِّظامِ .

قالَتْ إيبي لِسايْلاس عِنْدَما خَرَجا إلى الطَّريقِ : « أَتَمَنّى يا أَبي أَنْ نَمْتَلِكَ حَديقَةً صَغيرَةً كَحَديقَةِ زَوْجَةِ وِنْثروب ، غَيْرَ أَنَّها سَوْفَ تَحْتاجُ إلى عَمَلٍ شاقٍّ لِفِلاحَتِها وَزِراعَتِها ، وَأَنا لا أُحِبُّ أَنْ تَقومَ أَنْتَ بِمِثْلِ هذا العَمَلِ الشّاقِّ . »

« بَلْ إنَّني قادِرٌ عَلى القِيامِ بِهِ مِنْ أَجْلِ خاطِرِكِ ، يا بُنَيَّتي . إنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْتَنِيَ بِالحَديقَةِ في المَساءِ ، ثُمَّ في الصَّباحِ الباكِرِ ، قَبْلَ

أنْ أجْلِسَ إلى نَولي . لماذا لَمْ تُخْبِريني مِنْ قَبْلُ بِأنَّكِ تتوقين إلى امْتِلاكِ حَديقَةٍ ؟»

عِنْدَئِذٍ أسْرَعَ شابٌّ وَسيمٌ كانَ يَسيرُ خَلْفَهُما في خُطاهُ ، حَتّى إذا أصْبَحَ بِمُحاذاتِهِما قالَ : « إنَّني أسْتَطيعُ أنْ أتعهَّدَ لكَ هَذِهِ الحَديقَةَ يا سَيِّدُ مارْنَر ، بَعْدَ الفَراغِ مِنْ شُغْلِ النَّهار ، وَسَأحْضِرُ التُّرْبَةَ اللازِمَةَ لَها مِنْ حَديقَةِ السَّيِّدِ كاس . أنا مُوقِنٌ مِنْ أنَّهُ سَيَأذَنُ لي بِذَلِكَ .»

وَالْتَفتَ إلَيْهِ سايْلاس ، ثُمَّ قالَ : « أ هُوَ أنْتَ يا آرون ؟ حَسَنٌ ، إذا كُنْتَ سَتُساعِدُني في الحَديقَةِ فَسوْفَ نَسْتَطيعُ أنْ نُحقِّقَ رَغْبَةَ إيبي في زَمَنٍ وَجيزٍ .»

أجابَ آرون بِسُرْعَةٍ : « إذاً فَسوفَ أجيءُ إلى المَحْجَرِ عَصْرَ اليَوْمِ ، لِنُقرِّرَ معاً نَوْعَ التُّرْبَةِ المُناسِبَ ، وَسَوْفَ أسْتَيْقِظُ مُبَكِّراً في صَباحِ الغَدِ لأبْدأَ العَمَلَ .»

قالَتْ إيبي : « وَلَكِنْ أرْجو أنْ تَعِدَني بِألا تَعْمَلَ في الحَفْرِ يا والِدي ، فَإنَّ هَذا العَمَلَ شاقٌّ عَلَيْكَ . وَأنا لَمْ أكُنْ لأذْكُرَ لكَ شَيْئاً عَنْ هَذِهِ الحَديقَةِ ، لَوْلا أنَّ زَوْجَةَ وِنْثروب أكَّدَتْ بِأنَّ آرون سَوْفَ يُساعِدُ في فِلاحَتِها .»

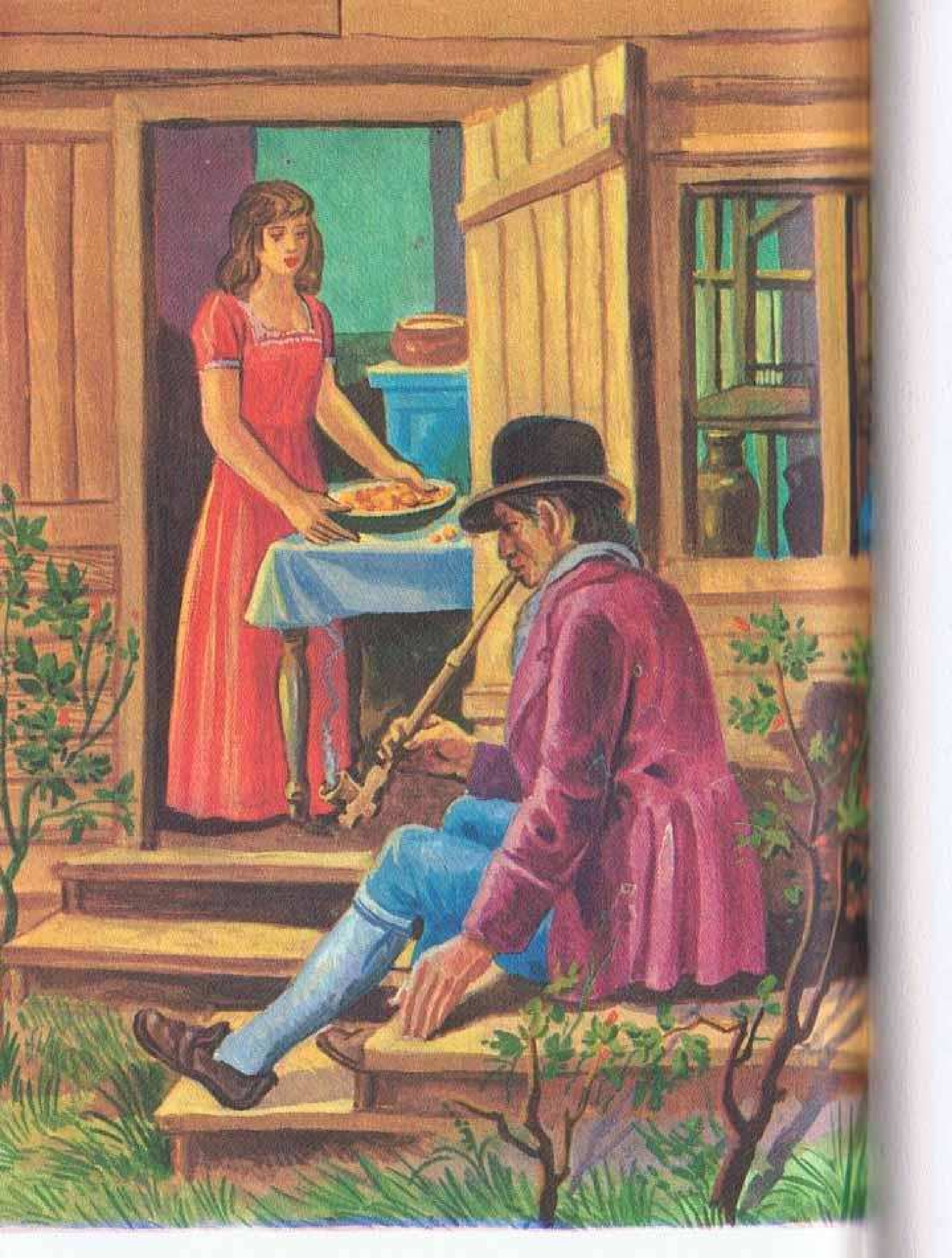
بادَرَ آرون إلى القَوْلِ : « كانَ يَجِبُ أنْ تَتأكَّدي مِنْ مُساعَدَتي دونَ أنْ تُخْبِرَكِ أمّي بِذَلِكَ ! كَما أنَّ السَّيِّدَ مارْنَر يَعْرِفُ أيْضاً أنَّني مُسْتَعِدٌّ لأنْ أعاوِنَهُ في أيِّ عَمَلٍ .»

قالَتْ إيبي في رِقَّةٍ : « أنْتَ لَنْ تَشْتَغِلَ في الحَديقَةِ إذاً يا أبي قَبْلَ أنْ يُمَهِّدَها آرون . سَوْفَ نُخَطِّطُ ، آرون وَأنا ، الأحْواضَ أوَّلاً ثُمَّ نَزْرَعُ الزُّهورَ . إنَّهُ لَجَميلٌ حَقّاً أنْ نَزْرَعَ الزُّهورَ إلى جِوارِ المَحْجَرِ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ يا آرون ؟»

أجابَ آرون عَلى الفَوْرِ : « سَوْفَ أحْضِرُ جُذورَ جَميعِ النَّباتاتِ مِنَ البَيْتِ الأحْمَرِ ، عِنْدَ شُروعي في فِلاحَةِ الحَديقَةِ هُناكَ ، فَأنا أقْطَعُ الكَثيرَ مِنْها خِلالَ عَمَلي وَأقْذِفُ بِها بَعيداً ؛ إذْ لا حاجَةَ لأحَدٍ بِها .»

أجابَهُ سايْلاس : « حَسَنٌ ، أرْجو ألا تَتْعَبَ كَثيراً مِنْ أجْلِنا ، أوْ تَطْلُبَ لَنا أشْياءَ ذاتَ قيمَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ البَيْتِ الأحْمَرِ ، فَإنَّ السَّيِّدَ كاس قَدْ بَذَلَ لَنا ما فيهِ الكِفايَةُ . لَقَدْ بَنى لَنا غُرْفَةً جَديدَةً فَسيحَةً مُلْحَقَةً بِالكُوخِ ، وَزَوَّدَنا بِالأسِرَّةِ وَالفَرْشِ ، وَأنا لا أريدُ أنْ أطْلُبَ مِنْهُ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .»

قالَ آرون : « لا تَقْلَقْ بِهَذا الخُصوصِ .»



وأردَفَ بَعْدَ بُرْهَةٍ وَجيزَةٍ : « يَجِبُ أنْ أذْهَبَ الآنَ ، فَإنَّ والِدَتي في انْتِظاري . »

قالَتْ إيبي : « جِئْ بِها مَعَكَ عَصْرَ اليَوْمِ يا آرون ، فَأنا أحِبُّ أنْ تَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الحَديقَةِ مُنْذُ البِدايَةِ ، حَتَّى تُرْشِدَنا بِآرائِها الصَّائِبَةِ . »

وَعادَ آرون إلى القَرْيَةِ ، بَيْنَما اسْتَأنَفَ سايْلاس وَإيبي سَيْرَهُما في اتِّجاهِ المَحْجَرِ .

وَلَمَّا وَصَلا الكُوخَ وَفَتَحَتْ إيبي البابَ سَمِعا صَوْتَ كَلْبٍ يَنْبَحُ بِالدّاخِلِ ، وَوَجَدا بِالقُرْبِ مِنَ النّافِذَةِ قِطَّةً تَجْلِسُ في دِفءِ الشَّمْسِ انْتِظاراً لِيَدٍ حَنونٍ تُرَبِّتُ عَلَيْها . كانَ الكُوخُ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيراً عَنْ ذي قَبْلُ ؛ فَقَدِ اخْتَفى فِراشُ النَّوْمِ مِنْ مَدْخَلِهِ ، وَامْتَلأتِ الرَّدْهَةُ بِالأثاثِ الجَميلِ الَّذي جاءَهُمْ مِنَ البَيْتِ الأحْمَرِ ، كَما حَوَتِ الغُرْفَةُ الدّاخِلِيَّةُ الجَديدَةُ أسِرَّةً مُريحَةً وَفِراشاً نَظيفاً . وَكانَ مَعروفاً لَدى أهْلِ القَرْيَةِ أنَّ السَّيِّدَ غودْفري كاس يَعْطِفُ كَثيراً عَلى النَّسّاجِ وَابْنَتِهِ ، وَكانوا يَرَوْنَ ذَلِكَ أمْراً طَبيعيّاً واجِباً عَلى مِثْلِهِ نَحْوَ النَّسّاجِ الفَقيرِ الطَّيِّبِ الَّذي تَطَوَّعَ بِتَرْبِيَةِ فَتاةٍ يَتيمَةٍ .

وَبَعْدَ أنْ تَناوَلَ سايْلاس وَإيبي طَعامَ الغَداءِ ، خَرَجَ الأوَّلُ لِيَجْلِسَ

أمامَ البابِ وَيُدخِّنَ غَلْيونَهُ في دِفْءِ الشَّمْسِ ، بَيْنَما شَرَعَتِ الفَتاةُ في رَفْعِ الأطْباقِ وَتَرْتيبِ البَيْتِ . وَكانَ سايْلاس لا يَميلُ إلى التَّدْخينِ ، غَيْرَ أنَّ بَعْضَ جيرانِهِ نَصَحوهُ بِتَدْخينِ الغَلْيونِ ؛ زاعِمينَ أنَّ ذَلِكَ قَدْ يُفيدُ في مَنْعِ نَوْباتِ الإغْماءِ الَّتي كانَتْ تَنْتابُهُ . وَلَقَدِ اسْتَجابَ لِنَصيحَتِهِمُ الجَهولِ بِسَبَبِ فَرْطِ اهْتِمامِهِ بِصِحَّتِهِ ، بَعْدَ أنْ دَخَلَتْ إيبي حَياتَهُ ، وَحَلَّتْ فيها مَحَلَّ الذَّهَبِ ، وَجَعَلَتْ لِتِلْكَ الحَياةِ لَذَّةً وَقيمَةً . هَكَذا كانَ سايْلاس يَعيشُ تِلْكَ الفَتْرَةَ مِنْ حَياتِهِ عيشَةً هانِئَةً وادِعَةً ، وَلَكِنَّ الذِّكْرياتِ القَديمَةَ المَريرَةَ ، المُسْتَقِرَّةَ في عَقْلِهِ الباطِنِ ، عَنْ حَياتِهِ السّابِقَةِ قَبْلَ مَجيئِهِ إلى راڤيلو ، لَمْ تَلْبَثْ أنِ اسْتَيْقَظَتْ فَجْأةً ، وَأخَذَتْ تُفْسِدُ عَلَيْهِ سَعادَتَهُ وَهَناءَتَهُ . وَلَمّا كانَتْ صِلَتُهُ بِالسَّيِّدَةِ دُولي وِنْتروب قَدْ تَوَطَّدَتْ تَماماً ، فَقَدْ شَرَعَ يَحْكي لَها شَيْئاً فَشَيْئاً وَقائِعَ تِلْكَ الحَياةِ الغابِرَةِ الحَزينَةِ . لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِالشَّيْءِ اليَسيرِ عَلى رَجُلٍ مِثْلِهِ ، كَما كانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلى دُولي أنْ تَفْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ بِوُضوحٍ . وَلَكِنْ ما إنْ أتى إلى نِهايَةِ قِصَّتِهِ وَذَكَرَ في أسًى بالِغٍ حُكْمَ النّاسِ عَلَيْهِ بِأنَّهُ السّارِقُ ، وَتَنَكُّرَ خَطيبَتِهِ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتّى أطْرَقَتِ السَّيِّدَةُ دُولي هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « كانَ السَّبَبُ في نَكْبَتِكَ حينَئِذٍ يا سَيِّدُ مارْنَر هُوَ ضَعْفَ إيمانِكَ بِاللهِ . وَلَوْ كُنْتَ قَوِيَّ الإيمانِ وَالثِّقَةِ بِاللهِ لَما هَرَبْتَ بَعيداً عَنْ أصْدِقائِكَ ، وَآثَرْتَ العُزْلَةَ وَالانْفِرادَ . »

أجابَ سايْلاس في هُدوءٍ : « آهٍ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كانَ شَيْئاً عَسيراً لِلْغايَةِ . كانَ مِنَ الصَّعْبِ حينَئِذٍ الوُثوقُ في أيِّ شَيْءٍ ! »

قالَتْ دُولي في اسْتِحْياءٍ : « حَقّاً إنَّ الثِّقَةَ تُصْبِحُ عَسيرَةً في مِثْلِ تِلْكَ الظُّروفِ ! »

غَيْرَ أنَّ سايْلاس لَمْ يَلْبَثْ أنْ هَبَّ عَلى حينِ غِرَّةٍ قائِلاً : « بَلْ إنَّكِ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدَةُ دُولي . يَجِبُ ألا يَفْقِدَ الإنْسانُ ثِقَتَهُ بِاللهِ مَهْما حَدَثَ . إنَّ في هَذا العالَمِ خَيْراً كَثيراً ، أكْثَرَ مِمّا يَسْتَطيعُ الإنْسانُ أنْ يَراهُ بِنَظَرِهِ القَصيرِ ، عَلى الرَّغْمِ مِمّا يُشَوِّهُهُ مِنْ حِقْدٍ وَكَراهِيَةٍ وَخُبْثٍ ! »

وَقَصَّ مارْنَر عَلى إيبي أيْضاً ، بَعْدَ أنْ كَبِرَتْ ، قِصَّةَ حَياتِهِ الماضِيَةِ؛ فَلَقَدْ كانَ مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ يُخْفِيَ عَنْها أنَّها لَيْسَتِ ابْنَتَهُ ؛ إذْ كانَتْ دائِمَةَ السُّؤالِ عَنْ أمِّها . وَبَعْدَ أنْ سَرَدَ عَلَيْها القِصَّةَ كُلَّها أعْطاها خاتَمَ الزَّواجِ الَّذي كانَ في إصْبَعِ أمِّها . غَيْرَ أنَّها لَمْ تَسْألْ قَطُّ عَمَّنْ يَكونُ أبوها ، فَلَقَدْ كانَتْ عاطِفَةُ الحُبِّ القَوِيَّةُ الَّتي رَبَطَتْ بَيْنَها وَبَيْنَ سايْلاس تُغْنيها عَنْ ذَلِكَ السُّؤالِ .

وَفي عَصْرِ يَوْمِ الأحَدِ ، عِنْدَما خَرَجَتْ لِتَسْتَمْتِعَ بِدِفْءِ الشَّمْسِ، كانَ أولَ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ بَصَرُها هُوَ الشَّجَرَةُ الَّتي ماتَتْ عِنْدَها أمُّها ،

وَكانَتْ مِنَ النَّوْعِ الدّائِمِ الاِخْضِرارِ وَذاتَ أَزْهارٍ صَفْراءَ .

قالَتِ الفَتاةُ لِمارْنَر : « سَوْفَ نَزْرَعُ مِثْلَ هَذِهِ الشَّجَرَة في حَديقَتِنا . سأَزْرَعُها في رُكْنِ الحَديقَةِ ، وَأَزْرَعُ زُهوراً حَوْلَها . »

أجابَها سايْلاس : « أَجَلْ يا ابْنَتي ، سَنَزْرَعُ مِثْلَها . سَوْفَ تُصْبِحُ جَميلَةً جِداً عِنْدَما تَيْنَعُ زُهورُها ، وَتَكْتَسي بِاللَّوْنِ الأَصْفَرِ الخَلاّبِ . عَلى أَنَّني أُفَكِّرُ الآنَ في السّورِ الَّذي سَوْفَ نُقيمُهُ حَوْلَ الحَديقَةِ لِمَنْعِ الحَيَواناتِ مِنْ دُخولِها . »

قالَتْ إيبي : « أَجَلْ يا أَبي ، يُمْكِنُ أَنْ نَبْنِيَهُ مِنَ الحِجارَةِ الكَثيرَةِ المُتَناثِرَةِ في هَذا المَكانِ . إِنَّ مُعْظَمَها مُتَوَسِّطُ الحَجْمِ وَيَصْلُحُ لِهَذا الغَرَضِ . »

وَجَرَتْ نَحْوَ الحُفْرَةِ الكَبيرَةِ لِتَنْقُلَ لِسايْلاس أَحَدَ تِلْكَ الأَحْجارِ ، لَكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَوَقَّفَتْ ، وَصاحَتْ في دَهْشَةٍ : « أَبَتاهُ ! تَعالَ وَانْظُرْ ها هُنا ! لَقَدِ انْخَفَضَ الماءُ كَثيراً عَمّا كانَ عَلَيْهِ بِالأَمْسِ ! »

وَنَظَرَ سايْلاس إِلى الحُفْرَةِ ، ثُمَّ قالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . لَقَدْ هَبَطَ الماءُ نَتيجَةً لِعَمَلِيّاتِ التَّجْفيفِ الَّتي قاموا بِها في حُقولِ السَّيِّدِ أوسغود عَلى ما أَعْتَقِدُ . لَقَدْ قالَ لي أَحَدُ العُمّالِ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيّامٍ إِنَّهُمْ سَوْفَ

يُجَفِّفونَ أَرْضَنا تَماماً . »

« يا لَهُ مِنْ شَيْءٍ جَميلٍ أَنْ تَجِفَّ هَذِهِ الحُفَرُ العَتيدَةُ ! »

وَالْتَقَطَتْ حَجَراً كَبيراً ، حَمَلَتْهُ بِضْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ تَرَكَتْهُ يَسْقُطُ .

قالَ سايْلاس : « هَيّا بِنا نَجْلِسْ عَلى الجانِبِ الآخَرِ الَّذي هُناكَ ، وَدَعي رَفْعَ الأَحْجارِ فَهِيَ تُؤْذي أَنامِلَكِ الرَّقيقَةَ . أَنْتِ في حاجَةٍ إِلى رَجُلٍ يَعْمَلُ مِنْ أَجْلِكِ ، وَذِراعايَ لَمْ تَعودا مِنَ القُوَّةِ كَما كانَتا مِنْ قَبْلُ . »

وَنَظَرَ سايْلاس إِلى إيبي نَظْرَةً ذاتَ مَغْزًى . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ قالَتِ الفَتاةُ فَجْأَةً : « إِذا ما تَزَوَّجْتُ يا أَبي ، فَهَلْ يَجِبُ أَنْ أَلْبَسَ خاتَمَ أُمّي ؟ »

أَجابَ سايْلاسُ في دَهْشَةٍ : « وَلِماذا تُفَكِّرينَ في هَذا الأَمْرِ ؟! »

قالَتِ الفَتاةُ في بَساطَةٍ جَذّابَةٍ : « بَدَأْتُ أُفَكِّرُ فيهِ مُنْذُ الأُسْبوعِ الماضي فَقَطْ ، مُنْذُ أَنْ أَخَذَ آرون يُحَدِّثُني بِخُصوصِهِ . »

« وَماذا قالَ ؟ »

« قالَ إنَّهُ يُريدُ الزَّواجَ لأنَّهُ بَلَغَ الرابِعَةَ والعِشْرينَ مِنَ العُمْرِ ، ولَدَيْهِ عَمَلٌ مُرْبِحٌ .»

وأَرْدَفَتْ إيبي وهِيَ تَضْحَكُ : « ثُمَّ أضافَ أنَّهُ يُريدُ أنْ يَتَزَوَّجَني أنا بِالذّاتِ .»

قالَ سايْلاس : « وَهَلْ تَنْوينَ الزَّواجَ بِهِ ؟»

أجابَتْ إيبي : « أجَلْ يا أبي ، في يَوْمٍ ما ، ولَكِنّي لا أعْرِفُ مَتى، غَيْرَ أنَّكَ لَنْ تَبْقى وَحيداً بَعْدَ ذَلِكَ يا أبي ، هكَذا قالَ آرون . سَوْفَ نَعيشُ جَميعاً مَعاً ، ولَنْ تَكونَ في حاجَةٍ إلى العَمَلِ ، عِنْدَما لا تَشْعُرُ بِالقُوَّةِ الكافِيَةِ لِذَلِكَ . سَوْفَ يَكونُ آرون بِمَثابَةِ ابْنٍ لَكَ ، هكَذا قالَ .»

قالَ سايْلاس وَهُوَ يَنْفُثُ دُخانَ غَلْيونِهِ : « إيهِ يا بُنَيَّتي الحَبيبَةَ ، أنْتِ أصْغَرُ مِنْ أنْ تَتَزَوَّجي الآنَ . عَلى أنَّني سَوْفَ أسْأَلُ زَوْجَةَ وِنْثروب رَأْيَها في الأمْرِ ، فَهِيَ تَعْرِفُ ما يَجِبُ عَلَيْنا أنْ نَفْعَلَ . إنَّ الظُّروفَ سَوْفَ تَتَغَيَّرُ ، وأنا سَوْفَ أزْدادُ تَقَدُّماً في السِّنِّ ، وأُصْبِحُ عَجوزاً خائِرَ القُوى ، وإنّي لأُحِبُّ أنْ يَكونَ لَكِ زَوْجٌ شابٌّ يُعْنى بِأَمْرِكِ . سَوْفَ أسْأَلُ زَوْجَةَ وِنْثروب رَأْيَها في الأمْرِ .»

وَلَمْ تَلْبَثْ إيبي أنْ صاحَتْ قائِلَةً : « ها هِيَ ذي قادِمَةٌ مَعَ آرون. هَيّا بِنا نَذْهَبْ لِاسْتِقْبالِهِما .»

الفَصْلُ الرّابعَ عشَرَ

الحَياةُ في البَيْتِ الأحْمَرِ

كانَتْ مَظاهِرُ الحَياةِ في البَيْتِ الأحْمَرِ قَدْ تَغَيَّرَتْ كَثيراً بَعْدَ مَقْدَمِ السَّيِّدَةِ نانْسي زَوْجَةِ غودْفري . فَقَدِ اخْتَفى الغُبارُ الَّذي كانَ يَعْلو أرْضَ المَنْزِلِ وَجُدْرانَهُ ، حينَ كانَ الشَّريفُ الكَهْلُ يَعيشُ بِلا سَيِّدَةٍ في مَنْزِلِهِ بَعْدَ وَفاةِ زَوْجَتِهِ ، كَما بَدَتْ حُجْرَةُ الاسْتِقْبالِ أنيقَةً وَمُرَتَّبَةً، يَلْمَعُ أثاثُها ، وَتَعبَقُ بِشَذا الزُّهورِ .

كانَتْ زَوْجَةُ غودفري وَأختُها بريسيلا جالِسَتَيْنِ مَعَ أبيهِما السَّيِّدِ لاميتر وَالسَّيِّدِ غودْفري في غُرْفَةِ الاسْتِقْبالِ بَعْدَ أنْ فَرَغوا جَميعاً مِنْ تَناوُلِ الغَداءِ . وَقالَتْ بريسيلا لأخْتِها نانْسي : « لَقَدْ أمَرْتُ بإِعْدادِ العَرَبَةِ كَيْ نَعودَ إلى بَيْتِنا قَبْلَ هُبوطِ الظَّلامِ ، وَسَوفَ أتولّى أنا قِيادَةَ الجَوادِ ؛ حَتى يَتَسنّى لِوالِدي أنْ يَستَمتِعَ بِغَفْوَةٍ مُريحَةٍ خِلالَ العَوْدَةِ. وَيُمكِنُنا الآنَ أنْ نَتَمشّى قَليلاً حَوْلَ الحَديقَةِ ، رَيْثَما يُعِدّونَ العَرَبَةَ وَالجَوادَ .»

وَقالَتْ بريسيلا لأخْتِها وَهُما تَسيرانِ فَوْقَ السُّنْدُسِ الأخْضَرِ : « حَسَناً صَنَعَ غودْفري بإِنْشاءِ مَزْرَعَةٍ لِتَرْبِيَةِ الأبْقارِ وَاسْتِدْرارِ اللَّبَنِ مِنْها ، فَإِنَّ الإِشْرافَ على مِثْلِ هَذِهِ المَزْرَعَةِ وَمَعْمَلِ الألْبانِ المُلْحَقِ بِها هُوَ خَيْرُ ما تُزْجِيانِ بِهِ وَقْتَ فَراغِكُما ، حَتّى لا تُعانِيا مِنَ الإحْساسِ بِالبَطالَةِ وَالمَلَلِ .»

أجابَتْ نانْسي في هُدوءٍ : « آهِ يا بريسيلا ، وَلَكِنَّ هَذا لَنْ يُساعِدَ غودْفري كَثيراً ، فَإِنَّ مَزْرَعَةً لِلألْبانِ لايُمْكِنُ أنْ تَسْتَحْوِذَ على اهْتِمامِ الرَّجُلِ كُلِّهِ . إنَّني راضِيَةٌ كُلَّ الرِّضا بِما نَحْنُ فيهِ ، غَيْرَ أنَّهُ كَثيراً ما يَتَملَّكُني الحُزْنُ لِحالِ غودْفري . إنَّهُ يُريدُ أنْ يُنْجِبَ وَلَداً أوْ بِنْتاً أوْ كِلَيْهِما ، وَهَذا شُعورٌ طَبيعِيٌّ . إنَّهُ يُريدُ أنْ تَكونَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يَعْمَلُ وَيَجِدُّ في سَبيلِ تَنْشِئَتِهِمْ وَبِناءِ مُسْتَقْبَلِهِمْ . إنَّ كَثيرينَ مِنَ الرِّجالِ يُصْبِحونَ أسْوَأَ حالاً عِنْدَ حِرْمانِهِمْ مِنَ الأطْفالِ ، وَلَكِنَّ زَوْجي طَيِّبٌ لِلْغايَةِ .»

قالَتْ بريسيلا مازِحَةً : « إنَّني عَليمَةٌ بِأحْوالِكُنَّ أيَّتُها الزَّوْجاتُ ، فَأنْتُنَّ تَمْتَدِحْنَ أزْواجَكُنَّ طَوْراً ، وَتَنْحينَ عَلَيْهِمْ بِاللَّوْمِ طَوْراً آخَرَ . عَلَيَّ أنْ أذْهَبَ الآنَ ، فَإِنَّ والِدي في انْتِظاري .»

كانَتِ العَرَبَةُ واقِفَةً عِنْدَ البابِ ، وَالسَّيِّدُ لاميتر يَنْتَظِرُ على دَرَجِ المَنْزِلِ . وَقالَتْ بريسيلا وَهِيَ تَرْكَبُ : « تَذَكَّرْ يا سَيِّدُ غودْفري أنْ

إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ . لكِنّها ما كادَتْ تَخلو إلى نَفْسِها في مَساءِ ذَلِكَ اليَوْم ، حتى انْبَثَقَتْ في ذِهْنِها أفْكارٌ لَمْ تَجُلْ بِخاطِرِها مِنْ قَبْلُ : « ماذا سَيَفْعَلُ غودْفري عِنْدَما يَتَقَدَّمُ بِهِ العُمْرُ ؟ إنَّ كِبارَ السِّنِّ يَشْعُرونَ دائِماً بِالحاجَةِ إلى أوْلادٍ . هَلْ كانَ يَتَسَنّى لِوالِدِها السَّيِّدِ لاميتر العَيْشُ بِدونِ أخْتِها بريسيلا ؟ إنَّها إذا ماتَتْ فَسَوْفَ يَشْعُرُ غودْفري بِوَحْدَةٍ قاتِلَةٍ !» غَيْرَ أنَّها سَرْعانَ ماتَخَلَّصَتْ مِنْ تِلْكَ الخَواطِرِ الكَئيبَةِ. ودُهِشَتْ نانْسي لِرُؤْيَةِ الخادِمَةِ تَدْخُلُ الحُجْرَةَ حامِلَةً صينيَّةَ الشّاي ، فَسَأَلَتْها : « هَلْ عادَ السَّيِّدُ غودْفري إلى المَنْزِلِ يا جين ؟»

« لا ياسَيِّدَتي ، وَلَكِنّي أرْجو أنْ تَنْظُري مِنَ النّافِذَةِ . إنَّ النّاسَ يُهَرْوِلونَ جَميعاً في هَذا الاتِّجاهِ . أظُنُّ أنَّ حادِثاً قَدْ وَقَعَ .»

قالَتْ نانْسي : « لا أعْتَقِدُ ذَلِكَ ، وَلَعَلَّ ثَوْرَ السَّيِّدِ إسْنل قَدْ هَرَبَ مَرَّةً أخْرى .»

غَيْرَ أنَّ نانْسي لَمْ تَلْبَثْ أنْ قَلِقَتْ عَلى زَوْجِها ، وَوَدَّتْ لَوْ يَحْضُرُ في الحالِ . وَسَرْعانَ ما سارَتْ نَحْوَ النّافِذَةِ وَأطَلَّتْ عَلى الطَّريقِ ، وَهِيَ تَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الاضْطِرابِ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

اكْتِشافٌ مُذْهِلٌ

تَهَلَّلَ وَجْهُ نانْسي حينَ رَأتْ زَوْجَها قادِماً مِنْ بَعيدٍ ، وَلَكِنَّهُ ما إنْ دَلَفَ إلى الحُجْرَةِ حَتى اسْتَلْقى مُتَهالِكاً عَلى أحَدِ المَقاعِدِ ، وَوَضَعَ قُبَّعَتَهُ بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ عَلى المَقْعَدِ المُجاوِرِ . وَبُهِتَتْ نانْسي لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ الشّاحِبِ وَنَظَراتِهِ الغَريبَةِ التّائِهَةِ ، فَلَمْ تَقْوَ عَلى الكَلامِ ، وَوَضَعَتْ يَدَها عَلى كَتِفِهِ في عَطْفٍ وَحَنانٍ .

وَلَمْ يَلْبَثْ أنْ قالَ في أنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ : « لَقَدْ عُدْتُ بِأقْصى ما أسْتَطيعُ مِنْ سُرْعَةٍ لأكونَ أوَّلَ مَنْ يَحْكي لَكِ القِصَّةَ . لَقَدْ صُدِمْتُ صَدْمَةً فَظيعَةً لِما وَقَعَ ، غَيْرَ أنَّ الَّذي يَهُمُّني الآنَ هُوَ أنْ تَتَلَقّي النَّبأَ في هُدوءٍ !»

قالَتْ نانْسي ، وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُها : « هَلْ وَقَعَ لِوالِدي أوْ لبريسيلا مَكْروهٌ ؟!»

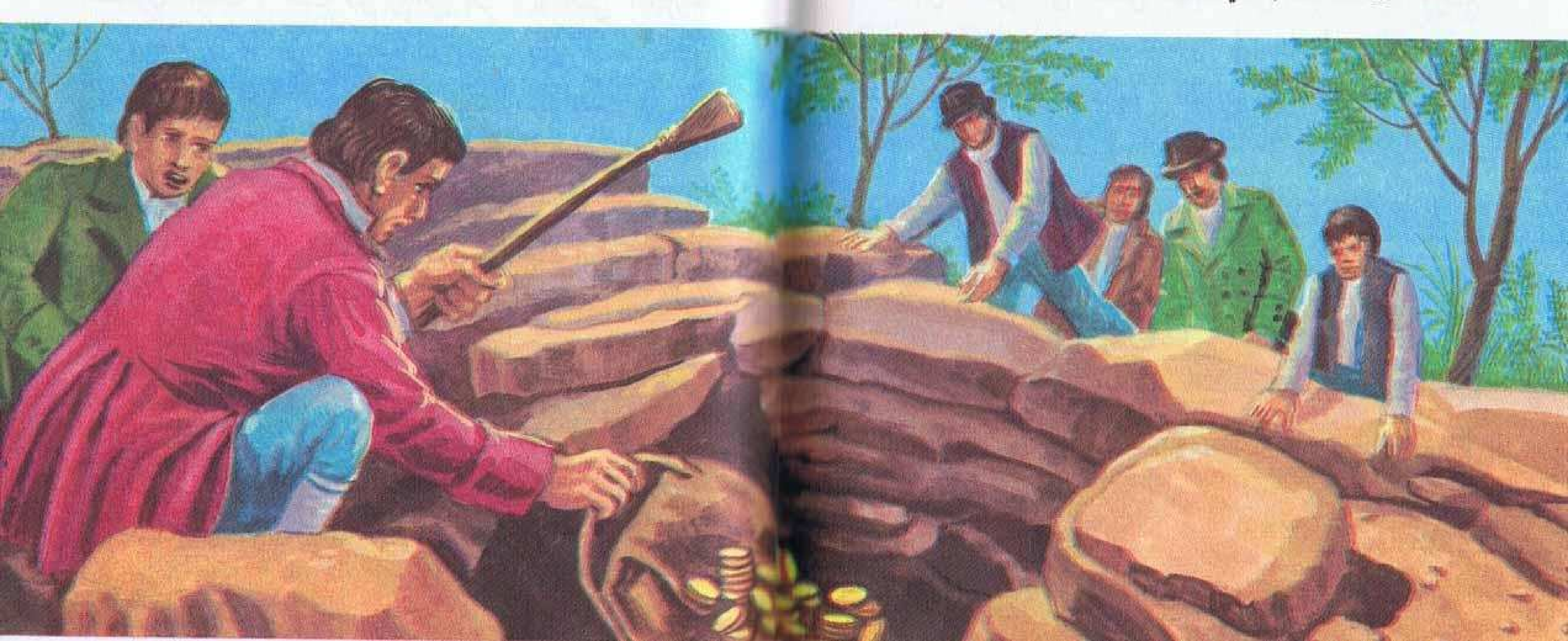
« لا ، إنَّهُ دانسْتان – أخي دانسْتان الَّذي اختفى مُنْذُ ستَّةَ عشَرَ عاماً . لَقَدْ وَجدْناهُ ، أعْني وَجدْنا جُثَّتَهُ ، أوْ عَلى الأصحِّ عثَرْنا على عِظامِهِ فَحَسْبُ ! »

طَمْأنَتْ تِلْكَ الكَلماتُ قَلْبَ نانْسي ، الَّتي كانَ قَدْ تملَّكَها الذُّعْرُ ، فَجلَسَتْ في هُدوءٍ لِتَسْمعَ بَقِيَّةَ القِصَّةِ . وَأرْدَفَ غودْفري قائِلاً : « لَقَدْ هَبَطَ الماءُ إلى أقْصى حَدٍّ في حُفْرَةِ المَحْجَرِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِ السَّيِّدِ مارْنَر ، بِسَبَبِ عَمَلِيَّةِ التَّجْفيفِ الجارِيَةِ في المَنْطِقَةِ ، فَكَشَفَ عَنْ بَقايا جُثَّةِ أخي مَحْشورَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ كَبيرَيْنِ . وَهُناكَ وُجِدَتْ ساعَتُهُ وَمَعَها سَوْطي ذو المِقْبَضِ الذَّهَبِيِّ الذي أخَذَهُ دونَ عِلْمي ، في آخِرِ يَوْمٍ خَرَجَ فيهِ عَلى ظَهْرِ جَوادي . »

وَتَوَقَّفَ غودْفري هُنَيْهَةً ، إذْ تَعَثَّرَتِ الكَلِماتُ على شَفَتَيْهِ .

سَألَتْهُ نانْسي ، وَقَدِ اعْتَرَتْها الدَّهْشَةُ لانْفِعالِ زَوْجِها الشَّديدِ بِما حَدَثَ لأخيهِ الشَّقِيِّ المَكْروهِ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ : « أ تَظُنُّ أنَّهُ أغْرَقَ نَفْسَهُ ؟ »

أجابَ غودْفري : « لا ، لَقَدْ سَقَطَ عَلى الرَّغْمِ مِنْهُ . »



ثُمَّ أضافَ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « إِنَّ دانِسْتان هُوَ اللِّصُّ الّذي سَرَقَ نُقودَ سايْلاس مارْنَر !»

وَانْخَرَطَتْ نانْسي في البُكاءِ وَهِيَ تُحِسُّ بِعَميقِ الحُزْنِ وَالرِّثاءِ لِزَوْجِها ، غَيْرَ أَنَّهُ بَقِيَ ساكِنًا لا يَنْظُرُ إِلَيْها . وَانْتَظَرَتْ هِيَ قَليلاً ثُمَّ جالَ بِخاطِرِها أَنَّهُ لَمْ يَفْرُغْ مِمَّا يُريدُ أَنْ يَقولَ ، فَقَدْ بَقِيَ شَيْءٌ لا يَزالُ مُتَرَدِّدًا في الإِفْصاحِ عَنْهُ . وَأَخيرًا صَعِدَتْ مِنْهُ زَفْرَةٌ عَميقَةٌ ثُمَّ قالَ : « نانْسي ! ثَمَّةَ سِرٌّ دَفينٌ ناءَ بِهِ كاهِلي طَوالَ السَّنَواتِ الماضِيَةِ، وَأُريدُ البَوْحَ بِهِ إِلَيْكِ الآنَ ؛ حَتّى أُخَفِّفَ عَنْ نَفْسي وَأُريحَ ضَميري المُعَذَّبَ : كُنْتُ قَبْلَ زَواجي بِكِ ، يا نانْسي ، مُتَزَوِّجًا بِامْرَأَةٍ أُخْرى زَواجًا سِرِّيًّا . صَحيحٌ أَنَّ زَوْجَتي الأولى قَدْ ماتَتْ قَبْلَ زَواجي بِكِ ، وَلَكِنْ كانَ مِنَ الواجِبِ أَنْ أُخْبِرَكِ بِذَلِكَ عَلى أَيَّةِ حالٍ . وَالآنَ أَرْجو أَلا تَكْرَهيني أَوْ تَحْتَقِريني ، يا نانْسي ، فَلَقَدْ كُنْتُ ضَحِيَّةَ ظُروفٍ سَيِّئَةٍ لِلْغايَةِ في ذَلِكَ الزَّواجِ . وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُخْبِرَكِ بِهِ في حينِهِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُقَلِّلَ ذَلِكَ مِنْ حُبِّكِ وَاحْتِرامِكِ لي ، فَقَدْ كُنْتُ وَما زِلْتُ أُحِبُّكِ بِشِدَّةٍ . إِنَّ زَوْجَتي السابِقَةَ هِيَ الَّتي وَجَدَها مارْنَر مَيِّتَةً وَسْطَ الثَّلْجِ ، كَما أَنَّ ابْنَتَها إيبي هِيَ ابْنَتي أَنا !»

وَتَوَقَّفَ هُنَيْهَةً عَنِ الكَلامِ ، وَتَطَلَّعَ إِلى وَجْهِ نانْسي لِيَرى مَدى تَأْثيرِ اعْتِرافِهِ المُذْهِلِ عَلَيْها .

وَشَحَبَ وَجْهُ السَّيِّدَةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ ، غَيْرَ أَنَّها احْتَفَظَتْ بِهُدوئِها وَرَباطَةِ جَأْشِها ، فَلَمْ تُجِبْ عَلى الفَوْرِ .

وَأَرْدَفَ غودْفري بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ : « أَخْشَى ما أَخْشاهُ أَنْ تَفْقِدي الثِّقَةَ بي يا نانْسي ! كانَ يَجِبُ أَلا أَتْرُكَ الطِّفْلَةَ مَجْهولَةَ الأَبِ طَوالَ هَذِهِ السَّنَواتِ ، غَيْرَ أَنَّني خَشيتُ أَنْ أَفْقِدَكِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَحَمَّلَ فِراقَكِ . لَقَدْ تَعَذَّبْتُ عَذابًا طَويلاً مَريرًا بِسَبَبِ الحَماقَةِ الَّتي ارْتَكَبْتُها في شَبابي .»

وَبَقِيَتْ نانْسي عَلى صَمْتِها ، وَظَنَّ غودْفري أَنَّها سَوْفَ تَنْهَضُ في ثَوْرَةٍ عارِمَةٍ لِتَهْجُرَهُ إِلى بَيْتِ أَبيها ، وَلَكِنَّها نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقالَتْ في صَوْتٍ هادِئٍ يَشوبُهُ الأَلَمُ وَيَخْلو مِنَ الغَضَبِ : « لَوْ كُنْتَ قَدْ أَخْبَرْتَني بِذَلِكَ يا غودْفري مُنْذُ سِتِّ سَنَواتٍ ، لَكُنّا قَدْ قُمْنا بِواجِبِنا نَحْوَ الفَتاةِ . هَلْ تَظُنُّ أَنَّني كُنْتُ أَرْفُضُ أَنْ تَعيشَ مَعَنا لَوْ عَرَفْتُ أَنَّها ابْنَتُكَ ؟!»

تَفاقَمَ شُعورُ غودْفري بِالإِثْمِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْنَيْهِ .

وَأَضافَتْ نانْسي قائِلَةً : « لَوْ كُنّا قَدْ أَخَذْنا الطِّفْلَةَ كَما كانَ يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، لَكانَتْ قَدْ أَحَبَّتْني كَأُمِّها ،

وَلاستَطَعْتُ أنْ أتحمَّلَ وَفاةَ طِفْلي في صَبْرٍ أكْثَر ! لكنَّكَ حَرَمْتَنا مِنْ سَعادَةٍ كَبيرَةٍ كانَتْ في مُتَناوَلِ أيْدينا !»

وَبكَتْ نانسي ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ الاسْتِمْرارَ في الكَلام ، كَما انْهَمَرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْ غودْفري وَهُوَ يَقولُ : « لكِنَّنا نَسْتَطيعُ أنْ نَأخُذَها ، إذْ لا يَهُمُّني الآنَ أنْ يَعْرِفَ كُلُّ النّاسِ سِرَّ زَواجي الأوَّلِ .»

أجابَتْ نانسي ، وَهِيَ تَهُزُّ رَأسَها في حُزْنٍ : « وَلَكِنَّ المَوْقِفَ يَخْتَلِفُ الآنَ يا غودْفري ، فَقَدْ كَبُرَتِ الفَتاةُ وَأصْبَحَتْ شابَّةً ناضِجَةً . وَ يَجِبُ عَلَيْكَ أنْ تُعْلِنَ عَلى الفَوْرِ أنَّكَ أبوها الحَقيقيُّ ، وَتَطْلُبَها مِنْ مارْنَر كَيْ تَتَكَفَّلَ أنْتَ بِها . وَلَسَوْفَ أقومُ مِنْ جانِبي بِواجِبي كامِلاً نَحْوَها ، وَأدْعو اللّهَ أنْ تُحِبَّني مِثْلَ أمِّها .»

قالَ غودْفري في حَماسَةٍ وَانْشِراح : « فَلْنَذْهَبْ إذاً اللَيْلَةَ مَعاً إلى سايْلاس مارْنَر .»

الفَصْلُ السّادِسَ عَشَر

عَرْضٌ مَرْفوضٌ

في حَوالى السّاعَةِ التّاسِعَةِ مِنْ مَساءِ ذَلِكَ اليَوْم ، كانَتْ إيبي جالِسَةً مَعَ سايْلاس مارْنَر في الكوخ . وَكانَ مارْنَر مُجْهَداً بِسَبَبِ الانْفِعالِ الشَّديدِ الَّذي اعْتَراهُ نَتيجَةَ عُثورِهِ عَلى كَنْزِهِ المَفْقودِ ، وَلكِنَّهُ كانَ يَبْدو سَعيداً ، وَهُوَ جالِسٌ في كُرْسِيِّهِ يَتَطَلَّعُ إلى إيبي المُمْسِكَةِ بِكِلْتا يَدَيْهِ . وَعَلى المِنْضَدَةِ أمامَهُما كانَتْ تَنْتَشِرُ النُّقودُ الذَّهَبِيَّةُ وَالفِضِّيَّةُ – مَعْشوقَةُ سايْلاس في الزَّمَنِ الغابِرِ . وَأخَذَ الرَّجُلُ الكَهْلُ يَقُصُّ عَلى إيبي كَيْفَ كانَ يَعُدُّ هَذِهِ القِطَعَ كُلَّ لَيْلَةٍ ، بِشَغَفٍ وَوَلَهٍ قَبْلَ أنْ يَنامَ ، وَكَيْفَ شَعَرَ بِالتَّعاسَةِ الشَّديدَةِ حينَ فَقَدَ ذَلِكَ المالَ ، حَتى أتَتْ هِيَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَبَدَّلَتْ عُسْرَهُ يُسْراً ، وَشَقاءَهُ نَعيماً .

قالَ سايْلاسُ لإيبي : « كُنْتُ لا أزالُ أحِنُّ إلى الذَّهَبِ وَأنْتِ في كَنَفي طِفْلَةً صَغيرَةً ، وَأتَشَوَّقُ إلى مُعْجِزَةٍ تُعيدُ إلَيَّ مالِيَ المَفْقودَ .

وَلكِنْ عِنْدَما شَبَبْتِ عَنِ الطَّوْقِ ، وَغَمَرْتِني بِنَظَراتِكِ الحُلْوَةِ الحانِيَةِ ، وَمُداعَباتِكِ البَريئَةِ الشَّائِقَةِ ، وَلَمَساتِ أَصابِعِكِ الرَّقيقَةِ الحَنونِ ، صِرْتِ أُنْسَ حَياتي وَبَهْجَةَ روحي ، وَآمَنْتُ بِأَنَّ السَّماءَ قَدْ مَنَحَتْني خَيْرَ عِوَضٍ عَنْ كَنْزِيَ المَفْقودِ . وَ إِذا خَيَّروني بَيْنَكِ وَبَيْنَ كُنوزِ الأَرْضِ كُلِّها ، لاخْتَرْتُكِ أَنْتِ دونَ مِراءٍ . أَنْتِ لا تَعْرِفينَ كَمْ أُحِبُّكِ الآنَ يا إِبِي !»

« بَلْ أَعْرِفُ حَقَّ المَعْرِفَةِ يا أَبي ، كَما أَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْلاكَ لَما كانَ هُناكَ مَنْ يُحِبُّني أَوْ يُعْنى بِالتَّفْكيرِ فِيَّ .»

قالَ سايْلاس : « آهِ يا بُنَيَّتي الحَبيبَةَ ، لَقَدْ كانَتِ البَرَكَةُ مِنْ نَصيبي إِذْ أَخَذْتُكِ ، فَلَوْ لَمْ يُرْسِلْكِ اللّهُ إِلَيَّ لَكُنْتُ قَدْ مِتُّ مِنْ فَرْطِ تَعاسَتي ، دونَ أَنْ أَتَذَوَّقَ لِلْحَياةِ طَعْماً ، وَلكِنْ شُكْراً لِلّهِ الَّذي أَحْسَنَ إِلَيَّ كُلَّ الإِحْسانِ ، كَما احْتَفَظَ لي بِالنُّقودِ إِلى الوَقْتِ الَّذي أَحْتاجُها فيهِ لِزَواجِكِ . إِنَّهُ ، سُبْحانَهُ ، واسِعُ الرَّحْمَةِ ، جَزيلُ الخَيْرِ وَالعَطاءِ !»

وَسُمِعَ قَرْعٌ عَلى البابِ ، فَقامَتْ إِبِي لِتُجيبَ الطّارِقَ ، وَما إِنْ رَأَتِ السَّيِّدَ غودْفري وَزَوْجَتَهُ حَتى تَهَلَّلَ وَجْهُها وَحَيَّتْهُما في رِقَّةٍ وَانْشِراحٍ .

قالَتْ نانْسي وَهِيَ تَأْخُذُ يَدَ إِبِي في يَدِها ، وَتَتَطَلَّعُ إِلَيْها في اهْتِمامٍ : « أَخْشى أَنْ يُزْعِجَكُما حُضورُنا في هذا الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ !»

أَجابَ سايْلاس وَهُوَ يَنْهَضُ مُرَحِّباً : « لا ، إِطْلاقاً !»

وَجَلَسَ غودْفري وَزَوْجَتُهُ في مَقْعَدَيْنِ مُتَجاوِرَيْنِ . وَوَقَفَتْ إِبِي إِلى جانِبِ سايْلاس في مُواجَهَتِهِما ، وَكانَتْ تَبْدو جَميلَةً رائِعَةً لِلْغايَةِ .

قالَ غودْفري وَهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ في ثَباتٍ : « حَسَنٌ يا سَيِّدُ مارْنَر ، لَقَدِ اغْتَبَطْتُ كَثيراً لاِسْتِعادَتِكَ نُقودَكَ المَسْروقَةَ ، كَما آلَمَني جِدّاً أَنْ يَكونَ السّارِقُ هُوَ شَقيقي المَرْحومَ دانِسْتان . إِنَّني أَشْعُرُ تَماماً بِأَنَّهُ مِنَ الواجِبِ عَلَيَّ تَعْويضُكَ عَمّا لَحِقَ بِكَ مِنْ أَلَمٍ وَأَذى . وَمَهْما قَدَّمْتُ لَكَ ، فَلَنْ يَكونَ ذَلِكَ سِوى رَدٍّ لِما أَدينُ بِهِ لَكَ في هَذا الحادِثِ ، وَفي أَشْياءَ أُخْرى كَذَلِكَ .»

وَتَوَقَّفَ غودْفري عَنِ الكَلامِ ؛ إِذْ كانَ قَدِ اتَّفَقَ مَعَ نانْسي عَلى أَلا يُفاجِئا الكَهْلَ وَفَتاتَهُ بِما جاءا لأَجْلِهِ مِنْ شَأْنٍ ، وَأَنْ يَطْرُقا المَوْضوعَ بِرِفْقٍ وَتَدْريجِيّاً .

إِلا أَنَّ سايْلاس شَعَرَ بِضيقٍ وَانْقِباضٍ مُباغِتَيْنِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قالَ:

« إنَّني أنْتَهِزُ هَذِهِ الفُرْصَةَ لأشْكُرَكَ ، يا سَيِّدي ، عَلى الخِدْماتِ الكَثيرَةِ الَّتي قَدَّمْتَها لي في الماضي ، وَلَكِنَّني أرى أنَّهُ لا ذَنْبَ لَكَ شَخْصِيًّا في حادِثِ السَّرِقَةِ !»

« أنْتَ تَنْظُرُ إلى الأمْرِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِكَ الخاصَّةِ يا سَيِّدُ مارْنَر ، وَلَكِنْ أرْجو أنْ تَدَعَني أفْعَلُ ما أراهُ صَواباً كَيْ أريحَ ضَميري . لَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِكَ السِّنُّ ، وَأصْبَحَ النَّسْجُ حِرْفَةً شاقَّةً لا تُناسِبُ شَيْخاً مَكْدوداً مِثْلَكَ .»

« إنَّ سِنّي لَمْ تَتَعَدَّ بَعْدُ الخامِسَةَ وَالخَمْسينَ ، وَذَلِكَ في حُدودِ ما أعْرِفُ ، يا سَيِّدي .»

« حَسَنٌ ، قَدْ يَمْتَدُّ بِكَ الأجَلُ ثَلاثينَ عاماً أخْرى أوْ يَزيدُ . وَهَذا المالُ الَّذي أراهُ أمامي عَلى المِنْضَدَةِ مالٌ قَليلٌ لا يَسُدُّ حاجَتَكَ الشَّخْصِيَّةَ هَذا الرَّدَحَ الطَّويلَ مِنَ الزَّمَنِ ، فَما بالُكَ وَأنْتَ تَعولُ نَفْساً أخْرى ؟»

أجابَ مارْنَر : « إنَّني لا أخْشى الحاجَةَ يا سَيِّدي ، فَإنَّني قَوِيُّ الثِّقَةِ بِاللَّهِ ، كَما أنَّنا نَسْتَطيعُ – إيبي وَأنا – أنْ نُدَبِّرَ أمْرَنا بِسُهولَةٍ . إنَّ مُعْظَمَ العُمّالِ في القَرْيَةِ لا يَدَّخِرونَ مَبْلَغاً كَهَذا . إنَّهُ مَبْلَغٌ ضَئيلٌ

بِالنِّسْبَةِ لَكَ ، وَلَكِنَّهُ كَبيرٌ بِالنِّسْبَةِ لأمْثالِنا مِنَ القَوْمِ البُسَطاءِ ، فَنَحْنُ لا نَطْمَحُ في الحَياةِ إلى أشْياءَ كَثيرَةٍ .»

قالَتْ إيبي : « نُريدُ الحَديقَةَ فَقَطْ ، يا أبي .» وَاحْمَرَّ وَجْهُها خَجَلاً .

قالَتْ نانسي ، مُحاوِلَةً أنْ تُساعِدَ زَوْجَها بِكَلِماتٍ مُناسِبَةٍ لِلْمَوْقِفِ: « هَلْ تُحِبّينَ الحَدائِقَ يا عَزيزَتي ؟ إذاً فَنَحْنُ مُتَّفِقَتانِ في هَذا الحُبِّ . إنَّني أعْطي الكَثيرَ مِنْ وَقْتي لِحَديقَةِ بَيْتِنا .»

وَصَمَتَ غودْفري لَحْظَةً ، ثُمَّ اسْتَأنَفَ حَديثَهُ لِمارْنَر قائِلاً: « لَقَدْ قُمْتَ بِواجِبِكَ كامِلاً نَحْوَ إيبي طَوالَ سِتَّةَ عَشَرَ عاماً . وَأظُنُّ أنَّهُ يُسْعِدُكَ الآنَ أنْ تَراها وَقَدْ كُفِلَ مُسْتَقْبَلُها جَيِّداً مِنَ النّاحِيَةِ المادِّيَّةِ. إنَّها شابَّةٌ ناضِجَةٌ وَفي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، غَيْرَ أنَّ العَمَلَ الشّاقَّ لا يُناسِبُها، فَهِيَ لا تَبْدو خَشِنَةً كَبَناتِ الطَّبَقَةِ العامِلَةِ . ألا يَسُرُّكَ يا مارْنَر أنْ يَتَوَلّى أمْرَها أناسٌ أغْنِياءُ ، يَسْتَطيعونَ أنْ يَتْرُكوا لَها ثَرْوَةً كَبيرَةً بَعْدَ وَفاتِهِمْ ، وَأنْ يَجْعَلوا مِنْها سَيِّدَةً مِنْ سَيِّداتِ الطَّبَقَةِ الرّاقِيَةِ ؟»

شَعَرَ سايْلاس بِطَعْنَةٍ بالِغَةٍ أصابَتْ كِبْرِياءَهُ ، أمّا إيبي فَقَدْ عَجِبَتْ مِنْ حَديثِ غودْفري ، وَلَمْ تَدْرِ لَهُ كُنْهاً .

قالَ سايْلاس ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ : « لَسْتُ أفْهَمُ ما تَعْنيهِ ،



يا سَيِّدي .»

أعْني يا سَيِّدُ مارْنَر أنَّ زَوْجَتي وأنا نُريدُ أنْ نَتَّخِذَ مِنْ إيبي ابْنَةً لَنا ؛ إذْ إنَّهُ لَيْسَ لَنا أوْلادٌ كَما تَعْلَمُ ، وَسَوْفَ نَمْنَحُها جَميعَ حُقوقِ الابْنَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَسَوْفَ تَرِثُ بَيْتَنا الكَبيرَ وَسائِرَ مُمْتَلَكاتِنا مِنْ بَعْدِنا . أظُنُّ أنَّهُ يَسُرُّكَ أنْ تَراها في بَحْبوحَةٍ مِنَ العَيْشِ ، وَأنْ تَطْمَئِنَّ على مُسْتَقْبَلِها ، بَعْدَ أنْ كافَحْتَ في سَبيلِها هَذِهِ السَّنَواتِ الطِّوالَ . وَسَوْفَ تَنالُ جَزاءَكَ العادِلَ عَلى هَذا الكِفاحِ النَّبيلِ . إنَّ إيبي لَنْ تَنْسى لَكَ صَنيعَكَ دونَ شَكٍّ ، سَوْفَ تُحِبُّكَ إلى المُنْتَهى وَتَحْضُرُ لِرُؤْيَتِكَ كَما تَحْضُرُ أنْتَ أيْضاً لِرُؤْيَتِها بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ ، بِالإضافَةِ إلى أنَّني سَوْفَ أفْعَلُ كُلَّ ما في وُسْعي لِتَأمينِ مُسْتَقْبَلِكَ لِلْفَتْرَةِ المُتَبَقِّيَةِ مِنْ حَياتِكَ .»

وَبَيْنَما كانَ غودْفري يَنْطِقُ بِالكَلِماتِ في صُعوبَةٍ وَتَوَتُّرٍ ، كانَتْ إيبي تَضَعُ يَدَها عَلى كَتِفِ سايْلاس في حَنانٍ بالِغٍ . وَأحَسَّتْ بِجَسَدِهِ يَرْتَعِشُ ، فَأحاطَتْ عُنُقَهُ بِذِراعِها وَكَأنَّها تُشَجِّعُهُ وَتَحْميهِ .

وَصَمَتَ سايْلاس هُنَيْهَةً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى ابْنَتِهِ قائِلاً : « إيبي يا ابْنَتي ، تَكَلَّمي أنْتِ . تَقَدَّمي بِالشُّكْرِ لِلسَّيِّدِ غودْفري كاس وَزَوْجَتِهِ عَلى هذا المَعْروفِ الجَديدِ . أنا لَنْ أقِفَ في طَريقِ سَعادَتِكِ

بِأيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ !»

تَقَدَّمَتِ الفَتاةُ إلى الأمام ، وَقالَتْ في ثَباتٍ وَإصْرارٍ : « أشْكُرُكَ يا سَيِّدي . إنَّني لَنْ أتَخَلّى عَنْ أبي سايْلاس بِأيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ ، كَما أنَّني لا أرْغَبُ في أنْ أكونَ مِنْ سَيِّداتِ المُجْتَمع الرّاقي .»

وَارْتَعَشَتْ شَفَتاها مِنَ الخَجَلِ وَالانْفِعالِ . وَسَرْعانَ ما تَراجَعَتْ إلى مَقْعَدِ سايْلاس الَّذي أمْسَكَ بِيَدِها كَيْ يَحولَ دونَ تَعَثُّرِها مِنْ فَرْطِ الارْتِباكِ .

غَضِبَ غودْفري مِنْ رَدِّ الفَتاةِ الَّذي لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ . وَلَمْ يَلْبَثْ أنْ صاحَ قائِلاً : « وَلَكِنَّ لي حَقًّا عَلَيْكِ يا إيبي ، هُوَ أقْوى الحُقوقِ قاطِبَةً ! إنَّكِ ابْنَتي أنا لا ابْنَةُ مارْنَر ، وَأُمُّكِ كانَتْ زَوْجَتي ، وَمِنْ واجِبي الآنَ أنْ آخُذَكِ لأتَكَفَّلَ بِكِ وَأُدَبِّرَ أمْرَ مُسْتَقْبَلِكِ .»

صاحَ سايْلاس في مَرارَةٍ : « أيْنَ كُنْتَ مُنْذُ سِتَّةَ عَشَرَ عاماً يا سَيِّدي ؟! لِماذا لَمْ تُصَرِّحْ بِالأمْرِ في حينِهِ ، وَلِماذا تُريدُ أنْ تَأخُذَ الفَتاةَ الآنَ بَعْدَ أنْ تَعَلَّقْتُ بِها ، وَتَعَوَّدْتُ الحَياةَ مَعَها ، وَأصْبَحْتُ لا أُطيقُ العَيْشَ بِدونِها ؟ إنَّها مِنّي بِمَثابَةِ القَلْبِ مِنَ الجَسَدِ. إنَّ اللّهَ قَدْ أرْسَلَها إلَيَّ لأنَّكَ لَمْ تَكُنْ راغِباً فيها . إنَّها ابْنَتي الآنَ أمامَ اللّهِ وَالنّاس ، وَلَيْسَ لَكَ أيُّ حَقٍّ عَلَيْها . عِنْدَما يَطْرُدُ الإنْسانُ النِّعْمَةَ عَنْ

بابِهِ ، فَإنَّها تَذْهَبُ إلى آخَرينَ مِمَّنْ يُدْخِلونَها إلى بُيوتِهِمْ بِفَرَحٍ وَتَرْحابٍ .»

أجابَ غودْفري : « أعْرِفُ هَذا يا مارْنَر ، وَأُقِرُّ بِذَنْبي أمامَ اللّهِ وَالنّاسِ .»

قالَ مارْنَر: « وَلَكِنَّ هَذا لَمْ يُغَيِّرْ شَيْئاً عَلى مَدى السِّتَّةَ عَشَرَ عاماً الماضِيَةِ . إنَّهُ رَدَحٌ طَويلٌ مِنَ الزَّمَنِ . إنَّني الشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي كانَتْ تُناديهِ بِكَلِمَةِ أبي طَوالَ هَذِهِ السَّنَواتِ !»

قالَ غودفري : « وَلَكِنَّني أؤَكِّدُ لَكَ أنَّها سَتَكونُ قَريبَةً مِنْكَ عَلى الدَّوام . سَوْفَ نَدَعُها تَأتي كَثيراً لِتَراكَ . كُنْتُ أظُنُّ أنَّ حُبَّكَ الصّادِقَ لِلْفَتاةِ سَوْفَ يَجْعَلُكَ سَعيداً وَمُرَحِّباً بِهَذا الحَظِّ الطَّيِّبِ الَّذي يَطْرُقُ بابَها ، عَلى الرَّغْمِ مِنِ ابْتِئاسِكَ لِفِراقِها . وَتَذَكَّرْ أنَّها إذا بَقِيَتْ في كَنَفِكَ ، فَسَوْفَ تَتَزَوَّجُ عَلى الأرْجَح شابًّا مُتَواضِعَ المَكانَةِ مِنَ الطَّبَقَةِ العامِلَةِ ، وَحينَئِذٍ لَنْ أسْتَطيعَ أنْ أهَبَها شَيْئاً مِنْ ثَرْوَتي .»

كانَتْ إيبي تُنْصِتُ جَيِّداً ، لِلْحِوارِ الَّذي يَدورُ بَيْنَ والِدِها الشَّيْخِ وَذَلِكَ الوالِدِ الجَديدِ ، الَّذي ظَهَرَ فَجْأةً في أُفُقِ حَياتِها ، وَالَّذي وَضَعَ خاتَمَ الزَّواجِ يَوْماً ما في إصْبَعِ أُمِّها . وَلَقَدْ شَعَرَتِ الفَتاةُ بِالمَقْتِ وَالازْدِراءِ لِهَذا الوالِدِ الجَديدِ ، وَلأمْوالِهِ الطّائِلَةِ . أمّا سايْلاس

فَقَدْ خَشِيَ ، رَغْمَ تَعَلُّقِهِ الشَّديدِ بِالفَتاةِ ، أنْ يَقِفَ عَقَبَةً في سَبيلِ سَعادَتِها وَهَناءَتِها ؛ لِذلِكَ لَمْ يَلْبَثْ أنْ قالَ : « لا جَديدَ عِنْدي أُضيفُهُ يا سَيِّدُ غودْفري ، سِوى أنْ تَسْأَلَ إيبي رَأْيَها في الأمْرِ ، فَإنْ رَغِبَتْ في الذَّهابِ مَعَكُما فَلَنْ أَقِفَ في طَريقِها .»

اِلْتَفَتَ غودْفري إلى ابْنَتِهِ الشّابَّةِ ، وَقالَ لَها في خَجَلٍ وَارْتِباكٍ : « إيبي يا عَزيزَتي ، نَحْنُ نُريدُ أنْ تُظْهِري كُلَّ الحُبِّ وَالعِرْفانِ بِالجَميلِ لِهَذا الرَّجُلِ الكَريمِ الَّذي كانَ أَبًا حَنونًا لَكِ طَوالَ هَذِهِ السَّنَواتِ . وَلَكِنَّني أرْجو أنْ تُحِبِّيني كَذَلِكَ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّني لَمْ أَقُمْ بِواجِبي الأبَوِيِّ نَحْوَكِ في الماضي . إنَّني أُريدُ أنْ أُعَوِّضَكِ عَنْ ذَلِكَ فيما تَبَقّى لي مِنْ عُمْرٍ ، وَلَسَوْفَ تَجِدينَ في زَوْجَتي خَيْرَ أُمٍّ لَكِ .»

قالَتْ نانْسي في طيبَةٍ وَحَنانٍ : « سَوْفَ تَكْتَمِلُ سَعادَتُنا ، يا عَزيزَتي ، حينَ يَلْتَئِمُ شَمْلُنا تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ ، أنْتِ وَغودْفري وَأنا . وَحَياتُنا لَنْ تَكْتَمِلَ إلا بِوُجودِكِ مَعَنا ابْنَةً عَزيزَةً مُكَرَّمَةً !»

ظَلَّتْ إيبي في مَكانِها تُمْسِكُ بِيَدِ سايْلاس في حَنانٍ بالغٍ ، وَأجابَتْ قائِلَةً في حَزْمٍ وَتَأْكيدٍ : « أشْكُرُكُما كَثيرًا عَلى عَرْضِكُما الكَريمِ ، فَهُوَ أعْظَمُ مِمّا كُنْتُ أُفَكِّرُ فيهِ أوْ أطْمَحُ إلَيْهِ . غَيْرَ أنَّني لَنْ

أشْعُرَ بِأيِّ سَعادَةٍ بَعيدًا عَنْ أبي سايْلاس ، وَلَنْ أتْرُكَهُ يَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ المَريرَةِ لِقاءَ أيِّ ثَمَنٍ . لَقَدْ أحَبَّني وَرَعاني مُنْذُ أنْ كُنْتُ طِفْلَةً تَحْبو ، وَسَوْفَ أَبْقى مَعَهُ إلى أنْ يَحينَ أجَلُهُ أوْ يَحينَ أجَلي . لَنْ يَفْصِلَنا سِوى المَوْتِ !» ثُمَّ أجْهَشَتْ بِالبُكاءِ .

قالَ سايْلاس لإيبي في تَأَثُّرٍ شَديدٍ : « وَلَكِنْ يَجِبُ أنْ تَتَأكَّدي أوَّلاً مِنْ حَقيقَةِ مَشاعِرِكِ يا بُنَيَّتي . يَجِبُ أنْ تَتَأكَّدي مِنْ أنَّكِ لَنْ تَأسَفي يَوْمًا ما عَلى هَذا القَرارِ ، تَذَكَّري أنَّكِ سَتَعيشينَ بَيْنَ قَوْمٍ فُقَراءَ ، وَتَرْتَدينَ مَلابِسَ رَخيصَةً ، وَتَسْكُنينَ مَنْزِلاً صَغيرًا مُتَواضِعًا ، عَلى حينِ أنَّ الفُرْصَةَ قَدْ سَنَحَتْ لَكِ لِتُبَدِّلي بِكُلِّ ذَلِكَ حَياةً أكْثَرَ راحَةً وَمُتْعَةً وَأمانًا .»

أجابَتْ إيبي : « لَنْ آسَفَ يَوْمًا لأنَّني تَخَلَّيْتُ عَنِ الثَّراءِ وَالمُتْعَةِ الكاذِبَةِ ، وَلَكِنَّني يا أبي سَوْفَ أعيشُ مُنَغَّصَةً طَوالَ حَياتي ، إنْ أنا تَنَكَّرْتُ لَكَ أوْ تَخَلَّيْتُ عَنْكَ . أنا لَمْ أعْتَدْ حَياةَ التَّرَفِ الَّتي يَتَحَدَّثُ عَنْها السَّيِّدُ غودْفري ، وَلا أوَدُّ أنْ أعيشَ في ظِلالِ هَذا التَّرَفِ .»

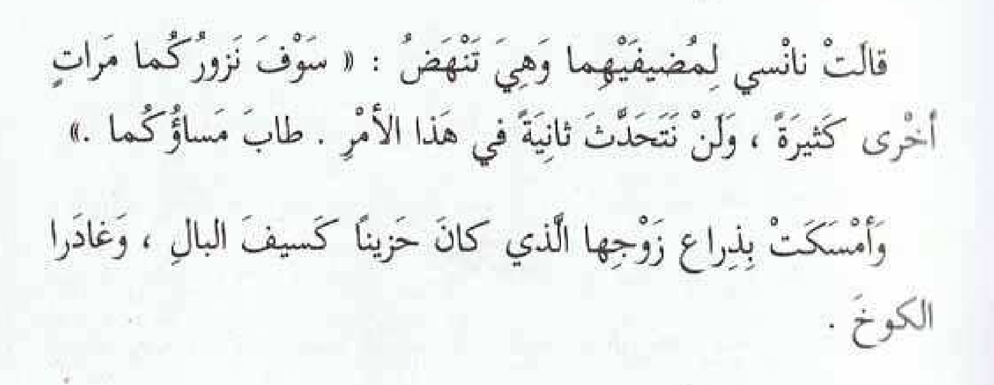
وَتَطَلَّعَتْ نانْسي إلى زَوْجِها الَّذي كانَ خافِضًا بَصَرَهُ إلى الأرْضِ ، وَقالَتْ لإيبي : « حَقًّا ما قُلْتِهِ يا ابْنَتي العَزيزَةَ ، وَلَكِنْ يَبْقى هُناكَ واجِبٌ عَلَيْكِ نَحْوَ أبيكِ الشَّرْعِيِّ ؛ عِنْدَما يَفْتَحُ هَذا الأبُ بابَهُ ، فَلا



يَجْمُلُ بِكِ أنْ تُديري لَهُ ظَهْرَكِ .»

أجابَتِ الفَتاةُ وَقَدْ تَجمَّعَتِ الدُّموعُ في عَيْنَيْها : « أنا لا أعْرِفُ لي أبًا سِوى أبي سايْلاس . إنَّهُ لَمْ يُعِدَّني لِكَيْ أُصْبِحَ سَيِّدَةً مِنْ سَيِّداتِ المُجْتَمعِ الغَنيِّ الأرِسْتُقْراطِيِّ ، وَلا أوَدُّ أنْ أكونَ كَذَلِكَ يَوْمًا ما . إنَّني أحِبُّ العامِلينَ البُسَطاءَ ، وَأحِبُّ مَنازِلَهُمْ وَأسْلوبَهُمْ في الحَياةِ . لَقَدْ وَعَدْتُ أحَدَ العُمّالِ الزِّراعِيِّينَ بِالزَّواجِ ، وَسَوْفَ يَعيشُ هَذا الزَّوْجُ مَعَ أبي مارْنَر ، وَيُساعِدُني في العِنايَةِ بِهِ .»

وَنَظَرَ غودْفري إلى زَوْجَتِهِ في يَأْسٍ قائِلاً : « هَيَّا بِنا لِنَعودَ !»



قالَتْ نانْسي لِمُضيفَيْهِما وَهِيَ تَنْهَضُ : « سَوْفَ نَزورُكُما مَراتٍ أُخْرى كَثيرَةً ، وَلَنْ نَتَحَدَّثَ ثانِيَةً في هَذا الأمْرِ . طابَ مَساؤُكُما .»

وَأمْسَكَتْ بِذِراعِ زَوْجِها الَّذي كانَ حَزينًا كَسيفَ البالِ ، وَغادَرا الكوخَ .

الخاتِمَةُ

كانَ أهالي راڤيلو يَتَّخذونَ مِنْ فَصْلِ الرَّبيعِ مَوْسِماً لِلزَّواجِ ، فَهُمْ يَعْتَبِرونَهُ أنْسَبَ الأوْقاتِ لِذَلِكَ . وَفي صَباحِ اليَوْمِ الَّذي زُفَّتْ فيهِ إيبي إلى عَريسِها آرون ، سَطَعَتْ شَمْسُ الرَّبيعِ في دِفْءٍ حانٍ خَفيفٍ ، وَانْتَشَرَ عَبَقُ الوُرودِ وَالأزاهيرِ في الحَدائقِ وَالحُقولِ . وَبَدَتْ إيبي في ثَوْبِ زِفافِها الأبْيَضِ الأنيقِ بالِغَةَ السِّحْرِ وَالجاذِبِيَّةِ ، وَكانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ الرَّائعُ الرَّقيقُ هُوَ هَدِيَّةَ نانسي زَوْجَةِ غودْفري لَها في تِلْكَ المُناسَبَةِ السَّعيدَةِ .

قالَتْ إيبي لِسايْلاس : « لَنْ تَتَخَلَّى عَنّي أبَداً يا أبي ، وَسَتَتَّخِذُ مِنْ آرون أيْضاً ابْناً لَكَ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أجابَ سايْلاس ، وَالفَرْحَةُ تَتَراقَصُ في عَيْنَيْهِ : « بِالتَّأكيدِ ، يا ابْنَتي الحَبيبَةَ . »

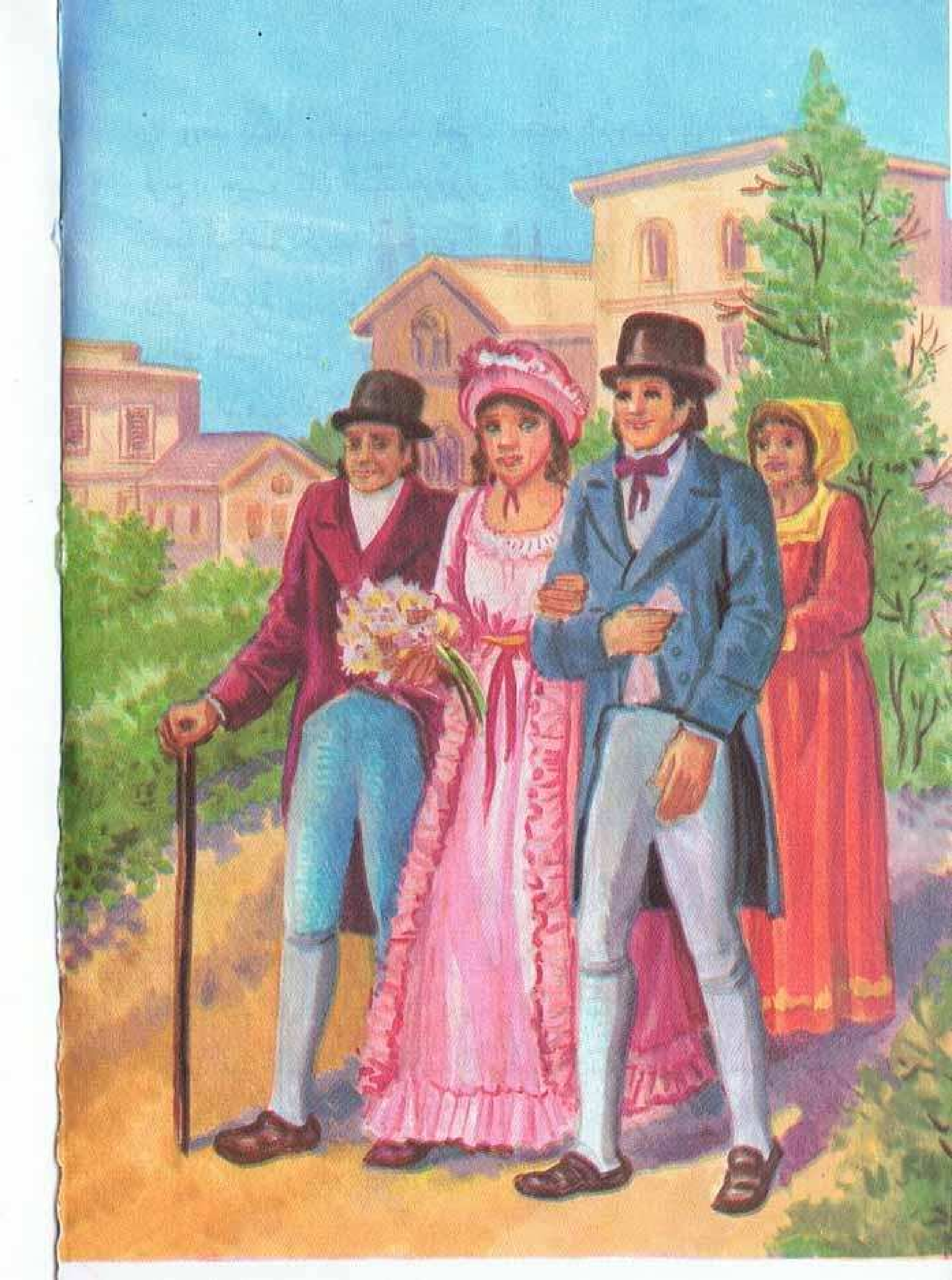
وَبَعْدَ انْتِهاءِ مَراسِمِ عَقْدِ القِرانِ ، اتَّجَهَ العَروسانِ إلى فُنْدُقِ قَوْسِ قُزَحَ ، حَيْثُ كانَ السَّيِّدُ غودْفري قَدْ أمَرَ بِأنْ يُقامَ عَشاءٌ فاخِرٌ عَلى نَفَقَتِهِ الخاصَّةِ تَكْريماً لَهُما . وَكانَتْ إيبي تَسيرُ بَيْنَ سايْلاس وَآرون ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ بِنْ وِنْثروب وَ زَوْجَتُهُ دُولي . وَبَدَتِ العَروسُ في ثَوْبِ زِفافِها الثَّمينِ مِثْلَ حوريَّةٍ ساحِرَةٍ ، أوْ مَلاكٍ أبْيَضَ يُتَوِّجُهُ شَعْرٌ يُشْبِهُ خُيوطَ الذَّهَبِ الصَّفْراءَ .

وَسارَ المَوْكِبُ الصَّغيرُ البَديعُ بَيْنَ جُموعِ المُشاهِدينَ ، الَّذينَ تَمَلَّكَهُمُ السُّرورُ وَالإعْجابُ ، غَيْرَ أنَّ غودْفري لَمْ يُشارِكْ سائِرَ المَدْعُوِّينَ مِنْ أهْلِ القَرْيَةِ هذا الاحْتِفالَ ؛ إذْ كانَ قَدْ غادَرَ القَرْيَةَ في صَباحِ ذَلِكَ اليَوْمِ ، مُتَعَلِّلاً بِإنْجازِ بَعْضِ الأعْمالِ الهامَّةِ . وَكانَ أهْلُ القَرْيَةِ يَرَوْنَ في إكْرامِ السَّيِّدِ غودْفري لِلنَّسّاجِ أمْرًا طَبيعيًّا لِتَعْويضِهِ عَمَّا لَحِقَ بِهِ مِنْ أذًى عَلى يَدِ شَقيقِهِ دانِسْتان ، وَقَدْ أسِفوا لِتَغَيُّبِهِ عَنْ حَفْلِهِمُ البَهيجِ .

وَتَجَمَّعَ المَدْعُوُّونَ في فِناءِ فُنْدُقِ قَوْسِ قُزَحَ قَبْلَ مَوْعِدِ العَشاءِ بِساعَةٍ ، وَأخَذوا يُثَرْثِرونَ مَعاً في مَرَحٍ وَحُبورٍ . وَاسْتَعادوا في سَمَرِهِمْ وَقائِعَ حَياةِ سايْلاس مارْنَر العَجيبَةَ ، وَأجْمَعوا عَلى أنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الطَّيِّبَ قَدْ جَلَبَ البَرَكَةَ وَالسَّعادَةَ لِنَفْسِهِ ؛ بِتَبَنِّيهِ تِلْكَ الطِّفْلَةَ اليَتيمَةَ الَّتي فَقَدَتْ والِدَيْها .

وَلمّا اقْتَربَ مَوْكِبُ العَروسَيْنِ ، هَتَفَ لَهُما الحاضِرونَ هُتافًا صاخِبًا بَهيجًا ، ثُمَّ تَقدَّمَ العَروسانِ المَدْعُوِّينَ إلى مائِدَةِ العَشاءِ الحافِلَةِ الَّتي أُقيمَتْ في بَهْوِ الفُنْدُقِ .

وَبَيْنَما كانَ العَروسانِ يَسيرانِ إلى بَيْتِهِما الصَّغيرِ الهادِئِ ، القائِمِ إلى جِوارِ المَحْجَرِ العَتيدِ ، طالَعَتْهُما عَنْ بُعْدٍ حَديقَتُهُ الجَميلَةُ اليانِعَةُ ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِما نَسَماتُ الرَّبيعِ الحُلْوَةُ المُعَطَّرَةُ بِأَريجِ الوَرْدِ وَالفُلِّ وَالياسَمينِ . وَكانَتْ عِدَّةُ تَحْسيناتٍ قَدْ أُدْخِلَتْ عَلى المَنْزِلِ عَلى نَفَقَةِ السَّيِّدِ غودْفري ، كَيْ يُلائِمَ عائِلَةَ سايْلاس الجَديدَةَ . وَما إنِ اقْتَربوا مِنَ البَيْتِ حَتّى صاحَتْ إيبي في جَذَلٍ وَسُرورٍ : « يا لَهُ مِنْ مَنْزِلٍ بَديعٍ ! لا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا أَسْعَدُ مِنّا حالاً ، يا أَبي ! »



الروايات المشهورة

١ - جين إير
٢ - فرانكنشتاين
٣ - مونفليت
٤ - دراكولا
٥ - لورنا دون
٦ - دكتور جيكل ومستر هايد
٧ - شي الملكة الأسطورة
٨ - كونت مونت كريستو
٩ - الرجل الخفي
١٠ - الزمن العصيب
١١ - الزنبقة السوداء
١٢ - الأمير و الفقير
١٣ - سايلاس مارنر
١٤ - الوادي الغاضب



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198114